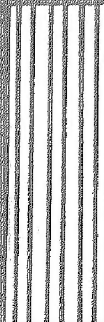


دكتور

محمد سعيد محمد السيد



قضية التكفير في الفكر الإسلامي



دكتور
محمد رشيد محمد السير

قضية التكفير في الفكر الإسلامي

الطبعة الأولى
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

دار الطباعة المحمدية
٣ شارع النزال بالأزهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى..

أما بعد :

فالفكر الإسلامى له عطاءؤه المتواصل ، الذى يرتكز على
أصولين عظيمين هما : القرآن المجيد والسنة المطهرة .. ، ويقوم فى
منهجه على نقاء العقل وصفاء الفهم ونور اليقين .

وقد تعددت المذاهب واختلفت الآراء ، ومع ذلك فإن الحق
أبلىج ، نطمئن إليه النفس ، وينشرح به الصدر ، ويسرى إلى العقل
والقلب .

لكن كما قال الإمام البوصيرى :

قد تنسك العين ضوء الشمس من رمد
وينسك الفهم طعم الماء من سقم

وتعد قضية التكفير من القضايا التى شغلت الفكر الإسلامى
على مدى تاريخه الطويل ، واختصم حولها الفرقاء ، وتبقى كلمة الحق
عالية رغم دعاوى القوم والغلواء ، لأنها كلمة الله الملك الحق المبين .

وقد جاء هذا البحث على مجموعة محاور :

• التوبة وشروطها وأعمال الخير التي يحو الله بها الخطايا
فالتوبة تجب ما قبلها وتبدل السيئات حسنات .

• الكبيرة وتعريفها ومذاهب العلماء في حكم مرتكبها ، وبيان
مذهب أهل السنة والجماعة الذين يجمعون في اجتماعهم بين العقل
والنقل ويوفقون بين النصوص ويعلنون أنهم لا يكفرون أحدا
من أهل القبلة بذنب ما لم يستحل .

• موقف أهل السنة من النصوص الشرعية التي توجب حكم
الكفر على بعض كبائر الإثم والفجور ، وبيان أن هناك كفرا
دون كفر ، وشركا أصغر لا يخرج عن الملة .

• الحكم بالكفر في آثاره الدنيوية والآخروية ، وبيان أن
الحكم بالكفر من عامة الناس يقع على الأوصاف ، ومن أولياء
الأمور والقضاة يقع على الأشخاص بالحق وببينات الأدلة وشواهد
البقين .

• الخاكسية في مفهومها الشرعي تعني أن يحكم الناس أنفسهم
بمنهج الله عز وجل ، ويقوم بها رجل لا عصمة له ، مطالب أن

— • —

يلتزم بشرع الله ودينه ، وهو ليس أفضل الناس ولكنه أكثرهم حملا وأعظمهم أمانة .

• نظرة إلى الفرق الإسلامية تؤكد أن الاختلاف في فروع الدين لا يمثل شقاقا في الأمة بل إنه يعد من أسر التشريع وسماحة الاجتهاد .

وأن اختلاف الأصول رغم مضمته — لم يصل في الأمة الإسلامية إلى مرتبة أن يقال : هذا كافر وذلك مؤمن .^(١)

فالمسلمون تجمعهم كلمة التوحيد ، ويتحلقون حول السكينة المشرفة ، وتخضع قلوبهم للقرآن العظيم ويلتزمون بأركان الدين .

• موالاته الكافرين مرفوضة شرطا وهي تعنى الخطيئة للأمة والتفريط في الدين ونقل أسرار المسلمين إلى أعدائهم المخابرين .

وهذه الموالاتة تختلف اختلافا كبيرا عن السب بأهل الذمة ، والتعاون مع كل من ألقى علينا السلم ولم يظاهر علينا أحدا .

فإن شواهد القرآن ووقائع السيرة النبوية تؤكد سماحة

(١) الفرق المنتسبة إلى الإسلام ليست مرادة هنا كفالة القبيحة والبهائية ..

— ٦ —

الإسلام والمسلمين ، وتدعو إلى التعاون المشترك لمصلحة الأمن العام
وفي إطار التعارف البشري وكرامة الإنسان .

وما أسعد الناس حين يعيشون عباد الله إخوانا
وما أجهل مشاعر الحب والوفاء .

« ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل
في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » (١) .

غرة جمادى الآخرة ١٤١٣هـ (١)

١٩٩٢/١١/٢٦ م

أبو حذيفة

د. محمد سيد أحمد المسير

أستاذ العقيدة والفلسفة — كلية أصول الدين

جامعة الأزهر

(١) سورة الحشر — الآية ١٠

(٢) سلمنا هذا البحث لوزارة الأوقاف في التاريخ المذكور لطبعه
ونشره مساهمة منا لوجه الله تعالى في تصحيح المفاهيم .. وإلى الآن
لا أدرى ماذا تم بشأنه .. !!

المبحث الأول

التسوية

— حقيقة التوبة

— مكفرات الذنوب

حقيقة التوبة

جاء الأمر الإلهي بالتوبة طاماً في قوله تعالى دو توبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ، (١) ،

وحقيقة التوبة الشرعية إقلاع عن المعصية ، وندم على ما وقع ، وهزم على عدم العود إليها ، واستقامة على منهج الله .

فلا توبة مسح الإصرار فالذي يمارس المعصية ويطيق عليها لا توبة لها .

وقد لا يكون الإقلاع عن المعصية توبة ، وذلك كمن ترك المعصية لمعنى آخر غير الندم ، فن ترك الفاحشة لعدم استطاعته لها ، أو ترك الخمر لضررها وظل قلبه متعلقاً بها لا يعد تائباً . فإن التوبة أصل قلبي تصحبه حركة الجوارح في استقامة واحدة نحو مرضاة الله تعالى .

ولكي يمحو المرء آثار معصيته يحتاج إلى التزود بالتقوى فإن الحسنات تذهب السيئات ، قال الله تعالى وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ، (٢) .

(١) سورة النور — الآية ٢١

(٢) سورة هود — ١١٤

ولإذا كانت المعصية متعلقة بحقوق العباد فلا بد من رد المظالم إلى أهلها أو مساحتهم فيها ، وقد سأل رسول الله ﷺ أصحابه يوماً فقال : أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لادرهم له ولا مناع ، فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته فإن فُتيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار ، رواه مسلم .

إن العبد حين يبدأ طريقه إلى الله تعالى بالتوبة يأخذ في الترتي من النفس الأمارة بالسوء ، إلى النفس اللوامة ، إلى النفس المطمئنة التي اطمأنت إلى ربها في حكمه وحكمته ، وسلكت مسالك الأنبياء والأصالحين ، واستحقت ذلك النداء الإلهي الكريم « يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » (١) .

والتوبة تكون من الكبائر والصغائر على سواء وتكون من الكفر والنسوق ، وتوبة الكافر هي إسلامه ، وتوبة العاصي هي

استقامته ، قال الله تعالى : قل للذين كفروا إن ينتموا يغفر لهم ما قد سلف ، (١) .

والتوبة بهذا المعنى تلتقي مع الاستغفار فإن قولنا لشخص : استغفر الله ، يساوى قولنا له : توب إلى الله .. فعند الاقتراح يكون اللفظان بمعنى واحد ..

فإن اجتمع اللفظان في عبارة واحدة اختلف المعنى ، فإذا قلت لشخص في جملة واحدة : استغفر الله وتوب إليه ، أصبح الاستغفار من معاصي الماضي وأصبحت التوبة من معاصي المستقبل ، بمعنى أندم على ما مضى من سيئاتك واحذر أن تفعلها في المستقبل ..

قال تعالى : ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويدركم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين ، (٢) .

والمسلم مطالب بالتوبة من الذنب وإن تكرر ، وكلما أحدث ذنبا جدد توبة ، معنى الله أن يهله ، وفي صحيح مسلم بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكى عن ربه عز وجل قال : أذنب عبد ذنبا فقال : اللهم اغفر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبيد ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب

فقال : أى رب اغفر لى ذنبى فقال تبارك وتعالى : أذنب هبدي
ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ..

ثم عاد فأذنب فقال : أى رب اغفر لى ذنبى ، فقال تبارك
وتعالى : أذنب هبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ
بالذنب ، اعمل ما شئت فقد غفرت لك ، قال الراوى : لا أدرى
أقال فى الثالثة أو الرابعة اعمل ما شئت ، .

وقد وهم بعض الناس فظنوا أن مثل هذا الحديث دعوة إلى
استمرار المعصية ، ولكن الحقيقة أن الحديث دعوة إلى التخلص
المستمر حتى لا يظل الشيطان قابعا فى عقل الإنسان وقلبه ، فإن
البديل للتوبة المتجددة هو سبيل المعصية الدائم ، ولذا قيل للحسن :
ألا يستحي أحدنا من ربه ، يستغفر من ذنوبه ثم يعود ، ثم يستغفر
ثم يعود ١٩ فقال : ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه ، فلا تملوا من
الاستغفار .

مكفرات الذنوب

هناك من أحوال الخير والبر والمعروف ما يكسب الإنسان حسنات ويمحو عنه سيئات ويمنحه فضلا من الله وثوابا . . منها:

١ - الوضوء :

في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها ورجلاه مع الماء أو آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب . .

٢ - دعاء الوضوء :

روى مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء .

٣ — صلاة ركعتين بعد الوضوء :

روى البخارى ومسلم أن عثمان رضى الله عنه توضأ ثم قال :
 رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئى هذا ثم قال : من توضأ
 نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم
 من ذنبه .

٤ — الأذان :

روى أحمد بإسناد صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما : قال
 قال رسول الله ﷺ : يغفر للمؤذن منتهى أذانه ويستغفر له كل
 رطب ويابس .

٥ — الدعاء عقب الأذان :

روى البخارى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول
 الله ﷺ قال : من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة
 التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا
 الذى وعدته — حلت له شفاعتى يوم القيامة .

٦ — الصلوات الخمس :

روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فكذا ذلك مثل الصلوات الخمس يمحوا الله بهن الخطايا،

٧ — السعى إلى المساجد :

روى مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قال: من تطهر فى بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئة والاخرى ترفع درجة، .

٨ — صلاة الجمعة :

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة واستمع وأقصد غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام، .

٩ — الصدقة :

روى الترمذى فى حديث معاذ ، قال رسول الله ﷺ : والصدقة تطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار .

١٠ - الصوم في رمضان :

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه .

١١ - صيام يوم عرفة :

عن أبى قتادة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن يوم عرفة قال : يكفر السنة الماضية والباقية ، رواه مسلم والترمذى إلا أنه قال : صيام يوم عرفة لى أحسن على الله أن يكفر السنة التى بعده والسنة التى قبله .

١٢ - صيام عاشوراء :

عن أبى قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال : يكفر السنة الماضية ، رواه مسلم .

١٣ - الحج :

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

١٤ — العمرة :

روى للبخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

١٥ — طلب العلم :

روى أبو داود وابن ماجه وابن حبان عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما وورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

١٦ — الجهاد :

روى الترمذي عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عينا لا تمسها النار ، عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله » .

(٢ — قضية التكفير)

١٧ — قراءة القرآن :

روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :
قال رسول الله ﷺ من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة
والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ،
ولام حرف وميم حرف .

١٨ — الذكر :

روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ
قال : من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله
الحمد وهو على كل شيء قدير ، في يوم مائة مرة كانت له عدل
عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة وصحبت عنه مائة سيئة وكانت
له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل
 مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك .

١٩ — ابتلاء الحياة :

في صحيح الحديث قال رسول الله ﷺ : ما يصيب المسلم
من نصب ولا وصب ولا غم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها
إلا كفر الله بها من خطاياها ، رواه البخارى .

المبحث الثاني

حكم مرتكب الكبيرة

- تعريف الكبيرة
- تقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر
- مذاهب العلماء في حكم مرتكب الكبيرة
- رد أهل السنة على المخالفين
- موقف أهل السنة من النصوص المكفرة

تعريف الكبيرة

اختلف العلماء في تعريف الكبيرة إلى آراء متعددة منها :

١ - ضبطها بعض العلماء بالعدد وقالوا إنها سبع أو سبع عشرة ، أو سبعون ، وحاولوا أن يحصروها من خلال النصوص الشرعية التي ذكرت أعداداً لها ، مثل قول رسول الله ﷺ : « اجتمعوا السبع الموبقات » ، قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الفاجرات .

وقول رسول الله ﷺ : ألا أنهيكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا : بلى ، قال : الشرك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت .

وسئل رسول الله ﷺ : أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قيل : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يأكل منك ، قيل : ثم أى ؟ قال : أن تزاني حيلة جارك .

وضبط الكبيرة بالعدد غير دقيق لأن تجميع النصوص لا يدل على الحصر ، وكان رسول الله ﷺ يحيب كل سائل بما يناسبه ..

٧ — ذهب بعض العلماء إلى أن كل معصية تعد كبيرة نظرا
لعظمة الله العلى الكبير ، فكيف يعصى الإنسان المخلوق الضعيف
خالقه الأعظم ؟ !

وهذا المذهب يتنافى مع النصوص الشرعية التى تفرق بين
الكبائر والصغائر مثل قوله تعالى : إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه
نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ، (١) ،

٣ — عرف بعض العلماء الكبيرة بأنها ما اتفقت الشرائع على
تحريمه مثل الزنا والسفوة .

وهذا التعريف مرفوض لأن هناك معاصى حرمها الإسلام
وجعل اقترافها كبيرة ولم تكن عسامة فى الشرائع السابقة مثل
شرب الخمر فقد لعن الله الخمر وعاصرها ومستهمها وإشارتها
وساقيا وحاملها والمحمولة إليه وبائعاها ومشتريها وآكل ثمنها — كما
ورد بذلك الحديث الذى رواه البيهقي .

٤ — ضبطها بعض العلماء بتعريف قالوا فيه :

إن الكبيرة ما ترتب عليها حد فى الدنيا .

ومن هنا أصبحت الكبائر محصورة فى القتل والزنا والسفوة

والقذف والحرابة ، وهذا يتنافى مع النصوص الشرعية التي تنهى
وصف الكبيرة لمعاصير ليس فيها حد مثل أكل الربا وأكل مال
اليتيم وعقوق الوالدين ... فهذه كبائر وليس فيها حد شرعى يقام
على من تكبىها .

• — التعريف المختار هو أن الكبيرة ما ترتب عليها حد في
الدين أو وعيد شديد في الآخرة .

وبذلك تتلافى الاحتراض السابق فإن حقوق الوالدين مثلاً
كبيرة من الكبائر وإن لم يسكن فيه حد شرعى يقام على العاق ،
فإن النصوص قد توعدته في الآخرة بعذاب شديد . .

تنقسم الذنوب إلى كبائر وصغائر :

هناك أدلة من القرآن الكريم والسنة الصحيحة على أن الذنوب
تنقسم إلى كبائر وصغائر ، منها :

١ — قوله الله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر
عنكم سيئاتكم ولدخليكم مخرجاً كريماً » .

فقد جعل الله تعالى تكفير السيئات مترتباً على اجتناب الكبائر
فتكون تلك السيئات هي الصغائر ، وإلا لما صح هذا التعليق ،
فلو كان المراد بالسيئات الكبائر لأصبح المعنى « إن تجتنبوا الكبائر
نكفر عنكم السيئات وهذا المعنى باطل .

— ٢٤ —

٢ — قول الله تعالى: «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش
إلا القلم» (١).

قالهم هو صغائر الذنوب، من ألم إذا نزل نزولاً من غير لبث،
طويل، ويقال ألمٌ بالطعام إذا قل من أكله..

٣ — وفي صحيح الحديث قال رسول الله ﷺ: «رمضان إلى
رمضان، والجمعة إلى الجمعة كغارة لنا بينهما ما اجتنبت الكبائر».

مذاهب العلماء في حكم مرتكب الكبيرة

اتفق العلماء على أن التوبة تجب ما قبلها ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، واتفقوا أيضا على أن من استحل مَعْصِيَةً أو أَسْكَرَ معلوما من الدين بالضرورة فقد كفر . .

واختلفوا فيمن ارتكب مَعْصِيَةً كبيرة غير مستحل لها بل فعلها وهو مدرك لحكم الله فيها ثم لم يتب من ذنبه وأصر عليه حتى مات . .

وكانت المذاهب في هذه المسألة على النحو التالي :

١ — الخوارج : وهم الذين خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب بعد ما قبل التحكيم في نزاعه مع معاوية بن أبي سفيان .

وهؤلاء يكفرون مرتكب الكبيرة ويحكمون بخلوده في النار إن مات بلا توبة . .

ويستدلون بقوله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » (١) .

ويقول رسول الله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ... » .

٢ — المرجئة : وهم الذين أرجأوا أمر الأمة إلى الله ، ولم يدخلوا في الصراع الدائر بين معاوية وعلى ورضي الله عنهما .

وهؤلاء يقولون لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، فإذا كان الكافر تذهب أعماله الصالحة هباءً منثوراً لأنه ناقه للإيمان الذي هو أساس قبول العمل فإن المؤمن الذي استقر في قلبه الإيمان لا يضره ما يعمل من المعاصي ..

ويستدلون بقوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ، ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ، (١) .

ويقول رسول الله ﷺ : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنا وإن سرق ... » .

٣ — المعتزلة : وهم أصحاب واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري واختلف مع أستاذه ..

وهؤلاء يقولون إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن لأنه حمل

المعصية ، وليس بكافر لأنه ينطق بالشهادتين ولكنه في منزلة بين
المنزلتين ويسمونه فاسقا وهو مخلد في النار . .

ويستدلون بمحوم الآيات والنصوص التي رتب العقاب على
المعصية مثل قوله تعالى : ومن يدهس الله ورسوله ويتعد حدوده
يدخله نارا خالدا فيها (١) .

والعاصي عندهم اسم يتناول الفاسق والكافر وكلاهما مخلد في
النار

وقوله تعالى : د إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون (٢) .

والمجرم عندهم يتناول الكافر والفاسق . .

٤ — أهل السنة والجماعة : وهؤلاء يجمعون في اجتهادهم بين
العقل والنقل ، ويوفقون بين النصوص ويقولون لا تكفر أحدا
من أهل القبلة بذنب ما لم يستحلله وما لم يكن من الكبائر المكفرة
كالشرك بالله أو إنكار معلوم من الدين بالضرورة . .

ويستدلون بقوله تعالى : د يا أيها الذين آمنوا كنبا عليكم
القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأثني بالأثني فمن عفي

(١) سورة النساء — ١٤

(٢) سورة الزخرف — ٧٤

له من أخيه شيء ، فانباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف
من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، (١) .

وجه الاستدلال النداء بوصف الإيمان في قوله : يا أيها الذين
آمنوا ، وكذلك وصف القتال بالأخ في قوله : فمن عفى له من
أخيه شيء ، فسمى ولي القتل أخا للقاتل والمراد أخوة الإيمان
وليس أخوة النسب قطعا ..

وقد تحقق هذا المعنى أيضا في قوله تعالى : وإن طائفتان من
المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ، فسماهم مؤمنين رغم قتالهم ...

وجاء هذا المعنى في الحديث الشريف : من كانت عنده مظلمة
لأخيه فليتحلله منها ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم ، من قبل أن
يؤخذ لأخيه من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات
أخيه فطرح عليه ، رواه البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه .

رد أهل السنة على المخالفين

الرد على الخوارج : يفهم أهل السنة قوله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها .. » على أحد الوجوه الآتية :

١ — الوصف بالمشتق يؤذن بعلمية ما منه الاشتقاق ، فإذا قلت لشخص : « احترم العالم » ، فيسكون سبب الاحترام هو العلم .

فقوله تعالى « ومن يقتل مؤمنا ، أى قتله من أجل إيمانه ، والقاتل حينئذ لا يكون إلا كافرا يتعقب المؤمن ، فالآية تتحدث عن قتل الكافرين للمؤمنين .

ولو كان المراد مطلق القتل ما كان للتنقييد بوصف الإيمان معنى ، ولجمات بتميز النفس بدل المؤمن ، كما قال تعالى « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا »^(١)

ولا يتصور أن يقتل مؤمن مؤمنا متعمدا من أجل إيمانه وإنما قد يقتله سرقة أو غصبا أو لأى غرض آخر سوى الإيمان .

٢ — ولو فرضنا جدلا أن الآية فى المؤمنين فيمكن تفسير الخلود بالمسكك الطويل وليس بالمسكك الأبدى فإن القاتل الذى

مات من غير توبة قد يعذب في جهنم عذاباً بقدر معصيته ثم يخرج من النار ويدخل الجنة فالخلود الأبدى للكافرين فقط والخلود الموقت لعصاة المؤمنين .

ويقوم أهل السنة الحديث الشريف : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، على أنه ينفي لئكال الإيمان وليس لحقيقة الإيمان ، فالزاني يكون ناقص الإيمان أثناء ارتكابه للجريمة .

الرد على المرجئة :

يقوم أهل السنة قوله تعالى «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» على أن مغفرة ما دون الشرك موقوفة على المشيئة الإلهية ، ولا أحد يدري هل يشملها العفو الإلهي أم لا ؟

والآية لا تنفي التعذيب الموقت وكذلك الحديث الشريف «من مات لا يشرك بالله دخل الجنة وإن زنا وإن سرق» .

فهل دخول الجنة يكون ابتداءً بلا تعذيب أو يكون بعد تعذيب موقت ؟ كلاهما جائز ولا حرج شرعاً .

فالمعصية تضر مع الإيمان وقد يعذب المؤمن عذاباً مؤقتاً .

الرد على المعتزلة :

ما استدلل به المعتزلة عموميات ليست نصا في الموضوع ولا ترفع الخلاف ، فتقوله تعالى **ومن يهين الله ورسوله ويتهن حدوده يدخله نارا عالما فيها .**

فالعامي إن كان كافرا فهو مغلل في النار أبدا وإن كان فاسقا مرتكبا لكبيرة دون الكفر فهو معذب عذابا مؤقتا وقد يغفر الله عنه لقوله تعالى **وإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .**

وقد جهلت أحاديث كثيرة تفيد انقطاع العذاب عن المؤمنين : فقد أخرج مسلم في صحيحه حديثا مطولا في الشفاعة رواه أبو سعيد الخدري جاء فيه :

يقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط .

وفي حديث آخر: يدخل الله أهل الجنة الجنة، يدخل من يشاء برحمته ، ويدخل أهل النار النار ثم يقول : انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه ، فيخرجون فيها حمما

قد امتحشوا ، فيلقون في نهر الحياة أو الحيا فينبتون فيه كما تنبت الحبة إلى جانب السبل ، ألم تروا كيف تخرج صفراء ملتوية ، (١) .

وقد جاء في حديث صحيح وصف هؤلاء بعد أن خرجوا من نهر الحياة فقال : فيخرجون كالزوا ، في رقابهم الحنوا ، يعرفهم أهل الجنة ، هؤلاء عتقاء الله ، الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه .

كما جاء في الحديث الصحيح وصف نعيم هؤلاء الذي منحه الله لهم فقال : ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم ، فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين ، فيقول : لكم هندي أفضل من هذا ، فيقولون : يا ربنا أى شيء أفضل من هذا ؟ فيقول : رضى فلا أسخط عليكم بعده أبدا .

وقد يتوهم البعض أن هذا الاتجاه يشجع على المصيبة ويدفع للناس إلى مقارفة الذنوب . . وهذا خطأ فإن المسلم يعيش بين أمن وخوف فلا يقنط ولا يعترف ، قال تعالى «أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه» (٢) ،

(١) فيخرجون — بالبناء للمجهول — ، والحم — بضم الحاء وبفتح الميم — الفهم ، وامتحشوا — بفتح التاء والحاء — احترقوا ، الحيا : المطر ، والحبة — بكسر الحاء — بذر البقول والشب .
(٢) سورة الزمر — ٩ .

وقد جعل القرآن اليأس من أوصاف الكافرين فقال : إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون، (١) .

وجعل القنوط من أوصاف الضالين فقال : قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ، (٢) .

وجعل الإسراف في الأمل من أوصاف الخاسرين فقال : « أفأنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، (٣) » .

وقد كان رسول الله ﷺ أول العابدين وأول المؤمنين وخير خلق الله أجمعين ومع ذلك قام من الليل حتى تفترت قدماه وكان يستغفر الله في اليوم مائة مرة .

(١) سورة يوسف — ٨٧

(٢) سورة الحجر — ٥٦

(٣) سورة الأعراف — ٩٩

(٣ — قضية التكفير)

موقف أهل السنة

من النصوص المكفرة

جاءت نصوص شرعية رتب الكفر على بعض الكبائر مثل قوله ﷺ : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

« لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » .

« إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » .

والجواب أن الكفر نوعان : كفر عملي وكفر اعتقادي .

وهذا التقسيم بناء على أن الإيمان تصديق وعمل ، فالكفر المرتبط بالتصديق هو المخرج عن الملة ، والكفر المرتبط بالعمل هو كبيرة وليس مخرجا عن الملة .

وإن قلنا إن الإيمان تصديق فقط فالكفر في هذه النصوص كفر مجازي على سبيل التشبيه ، إذ الكفر الحقيقي المخرج عن الملة هو المتصل بالتصديق والاعتقاد .

وقد جعل الإمام البخاري في صحيحه بابا من كتاب « الإيمان » بعنوان : « باب كفران العشير وكفر دون كفر » ،

وساق هذا الحديث بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما

قال : قال النبي ﷺ : أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء ، يكفرن
 قيل : أيكفرن بالله ؟ قال : يكفرن العشير ويكفرن الإحسان ،
 لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت
 منك خيرا قط .

وفي شرح ابن حجر على الحديث ساق هذا النص :

قال القاضى أبو بكر بن العربي في شرحه : مراد المصنف أن
 يبين أن الطاعات كما تسمى إيمانا ، كذلك المعاصى تسمى كفرا ،
 لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج من الملة ، .

ثم كتب الإمام البخارى بابا آخر عقب الباب السابق بعنوان :
 باب المعاصى من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا
 الشرك ، وساق هذا الحديث بسنده عن المعمر بن قيس قال : لقيت أبا ذر
 بالربذة وعليه حلة ، وعلى غلامه حلة ، فسألت عن ذلك فقال :
 إني سأبنت رجلا فعيرته بأمه ، فقال لى النبي ﷺ : يا أبا ذر
 أعيرته بأمه ؟ إنك امرئ فيك جاهلية ، إخوانكم خولكم^(١)
 جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما

(١) خول الرجل حشمه وخدمه ، والواحد خامل ، وقد
 يكون الخول واحدا ، وهو اسم يقع على العبد والامة ، والتخول
 التعبد ، والتخويل : التملك .

— ٣٦ —

يا كل ، وليلبسه بما يلبس ، ولا تكفؤهم ما يغلبهم ، فإن كفؤهم
فأعينهم .

وعلق الإمام ابن حجر قائلا :

إن كل معصية تؤخذ من ترك واجب أو فعل محرم فهي من
أخلاق الجاهلية ، والشرك أكبر المعاصي ولهذا استثناه ، وحصل
الترجمة (١) أنه لما قدم أن المعاصي يطلق عليها الكفر ، مجازا ،
على إرادة كفر النعمة لا كفر المبدأ — أراد أن يبين أنه كفر
لا يخرج عن الملة .

فهم قوله تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ،

في سورة المائدة جاء قوله تعالى :

«إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين
أسلموا للذين هادوا ، إوالبانيون والأحبار بما استحفظوا من
كتاب الله وكانوا عليه شهاداً ، فلا تخشوا الناس واخشون ،
ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك
هم الكافرون ، (٢) .

(١) العنوان الذي ذكره البخاري .

(٢) سورة المائدة — الآية ٤٤

إن سورة المائدة من السور التي تناقش اليهود والنصارى ،
وتلزمهم ضرورة الإيمان برسالة محمد ﷺ الذي جاء بالحق وصدق
المرسلين .

ولكن أهل الكتاب حرفوا وبدلوا وطمسوا البشارات
فكانوا أحق الناس باسم الكفر ، فهم لم يسيروا وفق المنهج الإلهي
في الاعتقاد .

قال تعالى : لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ،
وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ، إنه من يشرك
بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من
أنصار ،^(١).

وقال جل شأنه : قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ،
من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد
الطاغوت ، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ،^(٢) .

ثم إن للآية سبب نزول يرتبط بإنكار اليهود لحكم الله في
الرجم ، عندما جاءوا إلى رسول الله يستفتونه في أمر رجل وامرأة

(١) سورة المائدة — ٧٢

(٢) سورة المائدة — ٦٠

زانيا ، عسى أن يجدوا لديه حكما مخففا ، وزعموا أن التوراة ليس فيها حكم إلهي بشأن الزنا .

وقد وبخهم القرآن على موقفهم هذا ، وشنع عليهم ، وتعجب من فعلهم فقال وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين^(١).

ولهذا فإن قوله تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، .

يعنى من أسكر مشروعية الحكم وكذب بالتنزيل ورفض الإيمان بمنهج الله .

أما الحاكم الذى لا يلتزم فى حكمه بشرع الله عز وجل دون إنكار له فهو مرتكب لكبيرة من الكبائر ، يوصف بالفسق والظلم ولا يخرج عن الملة .

وعلى هذا المعنى جمهور العلماء من المفسرين والمحدثين والفقهاء .
وقد ذكر الإمام الرازى فى تفسيره أربعة معان ضعفها كلها :
ثم ذكر رأيا خامسا ارتضاه نفسه :

قال عكرمة : قوله : ومن لم يحكم بما أنزل الله ، إنما يتناول

من أنكر بقلبه وجهد لسانه ، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله ، وأقر لسانه كونه حكم الله ، إلا أنه أتى بما يضاده ، فهو حاكم بما أنزل الله تعالى ولكنه تارك له ، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية ، وهذا هو الجواب الصحيح ، والله أعلم^(١).

ولاحظ أن الإمام الرازي جعل التارك للحكم حاكما بما أنزل الله طالما أنه مؤمن به مصدق بقلبه . أي أن الحكم وعدم الحكم مرتبط بمسألة التصديق القلبي .

وقال الإمام القرطبي في تفسيره :

قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » والظالمون ، و « الفاسقون » نزلت كلها في الكفار ، ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث البراء ، وعلى هذا المعظم ، فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة ، وقيل : فيه إضمار أي ومن لم يحكم بما أنزل الله ردا للقرآن ، وجهدا لقول الرسول ﷺ فهو كافر ، قاله ابن عباس ومجاهد ، فالآية عامة على هذا .

قال ابن مسعود والحسن : هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار أي معتقداً ذلك ومستحللاً له .

(١) التفسير الكبير ١٢ ص ٧ ط دار الفسحر .

فأما من فعل ذلك وهو معتقد أنه راكب محرم فهو من فساق
المسلمين ، وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر
له ... (١) .

وساق الشيخ محمد الأمين الشنقيطي أقوال العلماء في تفسير
الآية ثم قال :

وأعلم أن تحرير المقام في هذا البحث أن الكفر والظلم والفسق،
كل واحد منها ربما أطلق في الشرع مراداً به المعصية تارة والكفر
المخرج من الملة أخرى .

«ومن لم يحكم بما أنزل الله، معارضة للرسول وإبطالا لأحكام الله
فظله وفسقه وكفره كلها كفر مخرج عن الملة ، ومن لم يحكم بما
أنزل الله معتقداً أنه مرتكب حراماً ، فاهل قبيحاً فكفره وظله
وفسقه غير مخرج عن الملة ...» (٢) .

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦ - ص ١٩٠ ط مؤسسة مناهل
المعرفان .

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢ - ص ١٠٤ ط
الرئاسة العامة لإدارات البحوث بالرياض .

وقال شارح العقيدة الطحاوية :

وهنا أمر يجب أن يتفطن له ، وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة ، وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة ، ويكون كفرا إما مجازيا وإما كفرا أصغر .. وذلك بحسب حال الحاكم ..

فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب ، وأنه غير فيه ، أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله - فهذا كفر أكبر ..

وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله ، وعلمه في هذه الواقعة ، وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا طاع ، ويسمى كافرا كفرا مجازيا أو كفرا أصغر ..

وإن جهل حكم الله فيما مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأه ، فهذا غلط ، له أجر على اجتاده وخطؤه مغفور ، (١) .

هكذا يكون صفاء الفهم لدين الله عز وجل ، بعيدا عن الانفعال للطائش والتقليد الأعمى والغواية المشينة . .

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٦٣ ط المكتب الإسلامي .

وإن بلاد المسلمين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب قد حكها
المستعمر الدخيل أحقاباً من الزمن ، طمس فيها الهوية الإسلامية ،
وبدد الطاقات وأهلك الحرث والنسل ، فلما حصلت هذه البلاد
على استقلالها وجدت نفسها على مفترق طرق ..

والأمر حينئذ يحتاج إلى مضاعفة الجهد والجهاد لعلماء الأمة
وأمرائها كي يلتقي الجميع على كلمة سواء ، يجددون بها ولاء الأمة
لدينها وإسلامها وتأخذ بأيدي أبنائها إلى صراط الله المستقيم في
وفق ناصح ، ورحمة معلم ، وحكمة داعية ..

المبحث الثالث

الحكم بالكفر

- الآثار الدنيوية
- الحكم على الشخص أو الوصف
- الآثار الأخروية
- موقف المسلم
- لفظ الأمن في القرآن

الحكم بالآثار الدنيوية

الحكم بالكفر حكم شرعي بمعنى أن الله تعالى أمر بالاعتقاد في وحدانيته سبحانه وملائكته الأطهار ورسله الأخيار وكتبه المقدسة ، وشرع لعباده ما يحقق لهم سعادة الدنيا وكرامة الآخرة ، فمن أنكر شيئاً مما علم من الدين بدهاة حكم بكفوره ..

ويترب على المسلم بالكفر جانب دنيوي وجانب أخروي :

فالجانب الآخرى هو الخسار في النار أبد الأباد ودهر الداهرين ، قال الله تعالى «إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ، أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين» (١) .

وقال جل شأنه «لئن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً ، لا يجدون ولياً ولا نصيراً» (٢) .

(١) سورة آل عمران - الآية ٩١

(٢) سورة الاحزاب - الآية ٦٤ ، ٦٥

والجانب الديوى على قسمين :

١ — إن كان الكافر مرتدا بعد إيمان فحكمه القتل ولا يمكن من نكاح مسلمة ولا غسل ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين لقوله — ﷺ — في صحيح البخارى : من بدل دينه فاقتلوه .

وقوله — ﷺ — في صحيح مسلم : لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث الشيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة .

وتنفيد حكم الردة إنما هو من اختصاص الإمام بعد إجراءات قضائية كالمناقشة وعرض الأدلة وطلب التوبة والإمهال ثلاثة أيام .

والمرتد حينئذ هو إنسان مجاهر بكفره ، داع إلى ضلالاته يخون مجتمع المسلمين ويترصد بهم الدوائر ، فهو أشبه ما يكون بما يسمى حاليا مرتكب الخيانة العظمى ..

أما من كنم عقيدته ولم يظهر ما يخالف الإسلام فأمره إلى الله ونعامله على حسب ما ظهر منه .

٢ — إن كان الكافر بالأصالة والورثة ويعتق ديننا ما فهو على ثلاثة أقسام :

(١) كافر يعيش في ديار المسلمين فله حق الزمة ويحظى باحترام المسلمين ويصان دمه وماله وهرضه ، قال تعالى دلا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبغواهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، (١) .

(ب) دولة كافرة تحفظ العلاقات الدولية ولا تعتدى على المسلمين ولا تظاهر عليهم أحدا ، فيصدق فيها قول الله تعالى دفا استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، (٢) .

(ج) دولة كافرة محاربة تتعقب المسلمين وتطاردهم وتعتدى على حمامهم فالجهاد فرضة ماضية إلى يوم القيامة .. قال الله تعالى دقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، (٣) .

(١) سورة الممتحنة — الآية ٨

(٢) سورة التوبة — الآية ٧

(٣) سورة البقرة — الآية ١٩٠

الحكم على الشخص أو الوصف

الحكم على إنسان ما بالكفر أو بارتكاب كبيرة من الكبائر في آثاره الدنيوية من إقامة الحدود لا يكون إلا للقضاء ، لقوله ﷺ ولو يعطى الناس بدعواهم لا دهر رجال أموال قوم ودماءهم ، لكن اليئنة على المدعى واليمين على من أنكر ، [حديث حسن رواه البيهقي وبعضه في الصحيحين] فالقضاء يقوم على الشهود واليمينات وبذل الجهد في الوصول إلى الحق .

وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أم سلمة زوج النبي ﷺ : أن رسول الله ﷺ سمع جملة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له ، فن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يذرها .

وهذا الحديث الشريف يضعنا أمام ثلاث قضايا مهمة في فلسفة القضاء :

الأولى : قوله ﷺ : إنما أنا بشر ، والمتصور هو التنبيه على أن الحاكم أو القاضي لا يعلم الغيب ولا يطلع على بواطن الأمور ، وإنما يحكم بين الناس بالظاهر وما استقر عليه غالب ظنه واطمأن إليه قلبه ، والله يتولى السرائر ، ولهذا قال رسول الله ﷺ لا روجين للمتلاعنين : حسابكما على الله ، أحكما كاذب .

الثانية : قوله ﷺ « فاعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له ، وهنا تظهر أهمية الدفاع والمرافعة والحجامة ، فإن كل خصم يهتم بأن يظهر بينته وما يؤيد دعواه ، فإن الدعوى بغير دليل لا قيمة لها .

وما على القاضى إلا أن يتفطن لبينة كل من الخصمين ، وأن يجتهد فى التعرف على الحق والعدل ، وأن يتحرى الدقة البالغة فى جوانب الدعوى كلها ثم بعد ذلك يصدر حكمه الذى توافرت له أسباب القوة واليقين .

الثالثة : قوله **وَاللَّهُ** دفن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من
من النار فليحملها أو يذرها .

هذا القول الكريم يضعنا أمام نقطة مهمة وهي أنه ليس كل حكم قضائي عدلا وصادقا في الواقع ونفس الأمر ، بل القضية مرهونة بالاجتهاد والتحرر والتثبت . . . وكما وقعت أحكام نتيجة شهود الزور ، فمن صدر له حكم قضائي على وجه الخطأ فهو المسئول عنه أمام الله تعالى ، وقد انتهت مهمة القاضي بإصدار الحكم بناء على ما اطمأن إليه من البينات ثم ينتقل الحكم ليصبح أمانة في عنق المحكوم له فهو أدري الناس بموقفه حقا كان أو باطلا .

(٤ - قضية التكفير)

الحكم بالآثار الآخروية

أما الحكم على إنسان ما بالكفر أو بارتكاب كبيرة من الكبائر في آثاره الآخروية فتترك لعدل الله تعالى ، فهو وحده المطلع على خفايا النفوس ، وميزان الله عدل ، لا يظلم مثقال ذرة .

ورب شخص ارتكب جرائم تبدو في أعين الناس كبائرا تؤدي بصاحبها إلى أودية جهنم ولكن له من الأعمال أو المواقف أو النيات ما يحو ذلك كله ، وقد جاءت النصوص كثيرة حول هذا المعنى منها :

١ — خلال فترة الإعداد لفتح مكة عهد رجل من المسلمين يسمى حاطب بن أبي بلتعة وكتب رسالة إلى أهل مكة يعلمهم فيها بما عزم عليه الرسول القائد من غزوهم وتطهير الكعبة من رجسهم ، وحمل الرسالة امرأة من قريش كانت في المدينة وجعل لها جملا على أن تبلغها قريشا .

ونزل الوحي بطالع الرسول ﷺ على ما فعل حاطب ، وبعث الرسول جماعة من فرسان المسلمين يتقدمهم علي بن أبي طالب وأمرهم أن يلحقوا بالمرأة وينزعوا الرسالة منها .

ووقف حاطب يدافع عن نفسه قائلا : لا تعجل علي ، إني كنت امرأ مخلصا في قريش ، ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من

المهاجرين لهم قرايات يحمون أهلهم بمسكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ فيهم بدا يحمون بها قرايتي .

وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ، وقد علمت أن الله ينزل عليهم بأسه وأن كتابي لا يغني عنهم شيئا .

وقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه قائلا : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق .

ولكن الرسول ﷺ قبل عذره الرجل قائلا :

إن الرجل صدقكم ، إنه قد شهد بدوا ، وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم .

لقد اتس الرسول الكريم عذرا للرجل وقدر له سابق جهاده مع المسلمين .

٢ - أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال : كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا ، فسأل عن أهل الأرض فدل على راهب ، فأناه ، فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ، فقال : لا ، فقتله فكل به مائة .

ثم سأل عن أهل الأرض فدل على رجل عالم ، فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ، فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين

التوبة ، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها ناسا يعبدون الله فاعبد
الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء .

فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختمت فيه
ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء
نابا مقبلا بقلبه إلى الله .

وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرا قط .

فأتاهم ملك في صورة آدمى فجعلوه بينهم فقال : قيموا ما بين
الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاموه فوجدوه أدنى إلى
الأرض التي أراد ، فقضته ملائكة الرحمة .

وفي بعض الروايات : د لما أتاه الموت ناء بصدره ،

د فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها .

د فأوحى الله إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى ، .

٣ — أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة أن رسول
الله ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا
فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش
فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ منى ،
فنزل البئر فلأخفه ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب فشكر الله له

فغفر له ، قالوا : يا رسول الله وإن لنا في هذه البهائم لأجرا فقال :
في كل كبد رطبة أجر ، .

وفي رواية أخرى :

أن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار ، يطيف بيثر قد أدلج
لسانه من العطش فنزعت له بموقها (١) فغفر لها ، .

د — أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن جندب أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم حدث أن رجلا قال : والله لا يغفر الله لفلان ،
وإن الله تعالى قال : من ذا الذي يتألى (٢) على أن لا يغفر لفلان .
فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك ، أو كما قال .

ه — أخرج مسلم في صحيحه عن ربعي بن حراش قال :
اجتمع حذيفة وأبو مسعود فقال حذيفة : رجل اتقى ربه فقال :
ما عملت ؟ قال : ما عملت من الخير إلا أني كنت رجلا ذاملا فكنيت
أطالبا به الناس ، فكنيت أقبل الميسور وأتجاوز عن المعسور
فقال : تجاوزوا عن عبيد .

قال أبو مسعود : هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقول .

(١) الموق — بضم الميم — الخف ، فارسي معرب .

(٢) يتألى — يحلف .

وفى رواية أخرى :

حوسب رجل ممن كان قبلكم ، فلم يوجد له من الخير شيء .
إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسرا فكان يأمر غلمانه أن
يتجاوزوا عن المعسر ، قال الله عز وجل : نحن أحق بذلك منه
تجاوزوا عنه .

من هذه النصوص يتجلى أن الحكم على الناس بما يلقونه في
الآخرة بأعيانهم هو من اختصاص الله تعالى وحده ، ولا أحد
يتحكم في القدر الإلهي الأعلى ، ولا أحد يملك خواتم رحمة الله ،
وإذا مات إنسان فقد أفضى إلى ما قدم ولا يجوز لمسلم أن يقيم من
نفسه حكما على أعمال شخص بذاته بل ندع ذلك لعلام الغيوب ..

موقف المسلم

والمسلم في حياته اليومية مطالب بالحكم على الأوصاف فهو يمتنع المعصية ويؤكد الوعيد ويلعن كل منحرف بوصفه لا بشخصه، فنقول مثلاً : لعنة الله على الظالمين ، والفاسقين ، والكافرين ، والسارقين . . وهكذا دون أن نخضع شخصاً بذاته أو نخضع لفساداً بعينه فإن العواقب خفية والعبرة بالخواتيم ..

فلا يقال : لعنة الله على فلان حتى ولو كان كافراً فربما تاب وأسلم ، وقد جاءت أحاديث بالنبى عن لمن شخص بعينه، ففي صحيح البخارى بسنده عن عمر بن الخطاب أن رجلاً كان على عهد النبى ﷺ كان اسمه عبدالله ، وكان يلقب حماراً ، وكان يضحك رسول الله ﷺ وكان النبى ﷺ قد جلدته فى الشراب ، فأتى به يوماً فأمر به بجلد ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ما أكثر ما يوقى به ، فقال النبى ﷺ : لا تعلموه فوالله ما علمت (١) أنه يجب الله ورسوله ، وفى حديثه آخر رواه البخارى :

(١) قيل : ما زائدة ، وقيل إن المفعول محذوف أى ما علمت عليه سوءاً ثم استأنف وقال إنه يجب الله ورسوله ، وقيل إن التاء مفتوحة فى « علمت » أى أنك لا تعلم أنه يجب الله ورسوله .

أنى النبي ﷺ يسكران فأمر بضربه ، فمنا من يضربه بيده ،
ومنا من يضربه بمنزله ، ومنا من يضربه بثوبه ، فلما انصرف قال
رجل : ماله أخزاه الله ، فقال رسول الله ﷺ لا تسكروا عوق
الشيطان على أخيكم .

وقد جاءت أحاديث بلعن الأوصاف دون الأشخاص ،
ففي صحيح البخارى بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال :
لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده ،
وقد ساق البخارى هذا الحديث تحت عنوان ، بابل لعن السارق
مالم يسلم .

لفظ اللعن في القرآن

والمنتبع لفظ اللعن ومشتقاته في القرآن الكريم بحسب أنه
لارتبط بأوصاف استوجبت اللعن ولم يتعلق بشخص واحد بل بأنه،
حتى عندما دعى به على إبليس جىء بالوصف المناسب وهو التره
والشيطنة . . قال تعالى : وإن يدعون لإشيطانا مريدا لعنه الله،
وقال لا تأخذن من عبادك نصيبا مفروضا ولا ضلالتهم ولا مغبنتهم
ولا مرنهم فليبدكن آذان الأنعام ولا مرنهم فليغيرن خلق الله (١) .

وعندما جاء اسم إبليس ذكر معه سبب الحكم فقال تعالى :
قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم
كنت من العالين ، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين
قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٢) .

لقد ساق القرآن حكم اللعنة على أوصاف الكفر والظلم
والنفاق ونقض الميثاق . الخ ولنقرأ بعض هذه النصوص :

« إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا » (٣) .

(١) سورة النساء ١١٧: ١١٨

(٢) ص ٧٥: ٧٨

(٣) الأحزاب ٦٤

«ألا لعنة الله على الظالمين» (١).

«فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم» (٢).

وخلال حديث القرآن الطويل عن قصص الأنبياء لم يرد اسم شخص في معرض الحكم عليه بالكفر اللهم إلا هامان وقارون وأبالهب (٣).

ودار الحديث القرآن عن الملأ الذين كفروا واستكبروا ، والصائين والجوس والذين أشركوا واليهود والنصارى والأحبار والربان وأصحاب السبت وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل وأصحاب الرس .. الخ .

وعندما كان الأمر يقتضى تحديد شخص بعينه باعتباره محور القصة أبى القرآن المجيد أن يذكر اسمه واكتفى بوصفه القريب ، وذلك مثل امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة العزيز ، وابن آدم ، وهكذا . .

(١) سورة هود — ١٨

(٢) سورة المائدة — ١٣

(٣) أما كلمة فرعون فليست اسما وإنما هي لقب لكل من حكم مصر القديمة ولهذا يقال فرعون موسى في محاولة لتحديد الفترة الزمنية .

ومما يريد الأمر هنا تعظيماً واهتماماً أن المتحدث في هذه
المواقف كلها هو الله الذي يعلم السر وأخفى . . فسا بالنا نحن البشر
الذين نهمل وننسى ويقصر بنا الفهم . .

لأننا جميعاً إخوة نريد أن نعيش سعداء بدين الله ، نتواصى
بالحق ونتواصى بالصبر ونقدم الانصيحة مخلصاً من حاد عن الطريق ،
ولسنا نخفقه وإنما نتمنى له ، ولسنا نخقره وإنما نخقر المعصية ،
فإذا عاد فرحنا به ، وإذا استمرأ المعصية أشفقنا عليه ودعونا
ودعونا له ، وإذا جاهر بها وأعلن دفعنا به إلى ساحة القضاء العادل
ليطبق عليه الحد الشرعي زجراً لمن على شاكلته وجبراً لذنبه عمى الله
أن يتوب عليه .

المبحث الرابع

الحاكمية

- مفهوم الحاكمية
- معاني حاكمية الله تعالى
- الحكومة الإسلامية

مفهوم الحاكمية

شاع بين الجماعات الإسلامية أن الحاكمية لله وأن المنازعة في حاكمية الله كفر .

وقد يكون مفهومهم صحيحاً لكن تعبيرهم خطأ ، فالحاكمية نسبة إلى الحاكم ، والحاكم في دنيا الناس لا يكون إلا بشراً ، وقد يسمى إماماً أو خليفة أو أميراً أو ملكاً أو رئيساً . فهذه كلها أسماء لمفهوم واحد هو سياسة الدنيا بالدين وقيادة الناس بشرع الله .. فالحاكمية كالإمامة والخلافة هي للبشر وليست لله بمعنى أن الحاكم بشر يحكم بما أنزل الله ..

ولسنا نعرفه لفظ الحاكمية على مدى التاريخ الإسلامي إلا في الحقبة الأخيرة من القرن الرابع عشر الهجري ، عندما أطلقها الشيخ أبو الأعلى المودودي ، ورددها الشهيد سيد قطب ، وتمسك بها بعض الشباب .. وهو اصطلاح لا دليل عليه^(١) .

وقد جاء القرآن المجيد لإسناد الحاكمية للبشر في كثير من آياته ، قال تعالى : «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً»^(٢) .

(١) رفع الخوارج شعار « لا حكم إلا لله » ، وردده عليهم الإمام علي بن أبي طالب وقال : كلمة حق أريد بها باطل ..

(٢) سورة النساء - ١٠٥

فالفعل «لتحكم» فاعله ضمير مستتر تقديره «أنت» ، يرجع إلى رسول الله ، فيكون الحاكم هو الرسول ومنهج حكمه هو ما أنزل الله .

وفي آيات سورة المائدة التي يكثر الاستدلال بها نجد الحاكم بشراً يطالب بالحكم بما أنزل الله وإلا أصبح كافراً أو فاسقاً أو ظالماً . قال تعالى :

— ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .

— ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .

— ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ،

فن يحكم ومن لا يحكم لا يكون إلا بشراً ..

وقد دعا القرآن إلى تحكميم البشر في هدى الحج فقال «فجزاهم مثل ماقتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم» (١) .

وفي الخلافات الزوجية فقال «وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً» (٢) .

(١) سورة المائدة — ٩٥

(٢) سورة النساء — ٣٥

وسمى القرآن القضاة حكاما فقال « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » (١).

وفي المقابل نجد أن القرآن المجيد أطلق على الله تعالى اسم « أحكم الحاكمين » فقال « ونادى نوح وبه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » (٢).

كما أطلق على الله تعالى اسم « خير الحاكمين » فقال : « واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » (٣).

فالتمثيل باللفظ « خير الحاكمين » أو « أحكم الحاكمين » يسمح بإطلاق لفظ الحاكم على الله تعالى وعلى البشر لكن بمعنىين مختلفين كضمان كافة الألفاظ التي يجوز فيها الاشتراك فإن ما يخص الله تعالى ليس كمثل شيء ، فهو في حقيقته مختلف تماما عما يماثله في الإطلاق على البشر كالعالم والكريم والحليم والرشيد ... الخ .

(١) سورة البقرة - ١٨٨

(٢) سورة هود - الآية - ٤٥

(٣) سورة يونس - ١٠٩

(• - فضيلة التكفير)

معاني حاكمية الله تعالى

وقد جاء إطلاق لفظ الحاكم على الله تعالى بثلاثة معان هي :

١ - الحكم السكوني :

بمعنى السنين السكونية والنواميس التي تحكم الكائنات فهذا حكم الله وحده لا يستطيع أحد تغيير السنن أو إرجاءها أو التمرده عليها ونقرأ في هذا المعنى آيات منها :

قوله تعالى « قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض ، أبصر به وأسمع ، ما لهم من دونه من ولي ، ولا يشرك في حكمه أحداً » (١) .

فتدبر الله للكائنات والأحداث خاص به وحده لا دخل للبشر في ذلك .

وقوله تعالى « أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » (٢) .

فنفقضان الأرض بمعنى إظهار الإسلام على أنقاض دولة

(١) سورة الكهف — ٢٦

(٢) سورة الرعد — ٤١

الكفر ، أو بمعنى اختلاف أحوالها وتبدل أحداثها أو بمعنى تأثير الماء في اليابسة ، فتلك من كونية متى أرادها الله وقعت ولا راد لحكمه ..

وقوله تعالى : قل إنى على بينة من ربي وكذبت به ، ما عندي ما يستعجلون به إن الحكم إلا لله بقص الحق وهو خير الفاصلين ،^(١) فقولاء المكذبون يستعجلون العذاب استمراء بالوعيد فأمر الله رسوله أن يعلن الحقيقة الكبرى وهي أن الجزاء والعقاب صرهون بإرادة الله وحده وله الحكمة البالغة في التعجيل أو التأخير ..

٢ - الحكم التشريعي :

بمعنى أن الله تعالى وحده هو الذى ينزل الوحي على من اصطفي من عباده ليبين للناس الحق والباطل ، والخير والشر ، والحلال والحرام فى العقائد والمعاملات ، وهو سبحانه أعلم بما يصلح عباده ويصلح لهم ..

ونقرأ فى هذا المعنى قول الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محل الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد ،^(٢) .

(١) سورة الأنعام - ٥٧

(٢) سورة المائدة - ١

فالحكم هنا بمعنى التشريع المتعاق بالعقود والمأكولات
الطبوانية في الحل والحرم ..

ونقرأ قول الله تعالى « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها
أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا
تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون،^(١) .

فالحكم هنا تشريعي يتعاق بالعقيدة القائمة على التوحيد
الخالص ..

وفي شأن الغناء المؤمنات اللاتي هاجرن بعد صلح الحديبية
نزل حكم إلهي باستثنائهن من تطبيق شرط إفاضة من جاء مسلماً ،
قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات
فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن
إلى الكفار ، لا هن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن ، وآتوهن ما أنفقوا
ولا جناح عليكم أن تنكحنهن إذا آتيتوهن أجورهن ،
ولا تمسكوا بعصم الكوافر ، واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا
ذلكم حكم الله بحكم بينكم والله عليم حكيم ،^(٢) .

والحكم الإلهي التشريعي هو تكليف للبشر بمسكن قبوله

(١) سورة يوسف — ٤٠

(٢) سورة الممتحنة — ١٠

فيكون الإيمان، ويمكن رده فيكون الكفر ، وقد جعل الله
للمؤمنين جزاء هو بركة الدنيا وحسن جزاء الآخرة ، وجعل
للكافرين ضحك الحياة وسوء المنقلب .

قال تعالى و قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ، فإذا
يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض
عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب
لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها
وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزي من أشراف ولم يؤمن بآيات
ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، (١) .

٣ — الحكم الأخرى :

بمعنى أن الله تعالى يبعث الناس من قبورهم ويسوقهم للحساب
والجزاء ، ويقف الخلائق جميعا ليحكم بينهم الواحد ، القهار قال
تعالى و الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ، (٢) .

وقال جل شأنه و قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم
الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، (٣) .

(١) سورة طه — ١٢٣ : ١٢٧

(٢) سورة الحج — ٦٩

(٣) سورة الزمر — ٤٦

الحكومة الإسلامية

والذى نريد أن نؤكد أنه هو أن الحاكم فى الإسلام رجل
لا عصمة له ، وهو مطالب أن يلتزم بشرع الله ودينه ، وليس
شرطاً أن يكون أفضل الناس ولكنه بالنا كيد أكثرهم حملاً ..

والحاكم المسلم يأتى به أهل الحل والعقد باختيار حرة
واستفتاء عام يسمى البيعة ، ويقوم حكمه على العدل والشورى ..

قال الله تعالى : إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها
وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعماً يعظكم به إن
الله كان سميعاً بصيراً ، (١) .

وأمر الله رسوله فقال : وشاورهم فى الأمر ، (٢) .

وجعل الله واسطة عقد صفات المؤمنين الشورى فقال :

« والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم
وما رزقناهم ينفقون » (٣) .

(١) سورة النساء - ٥٨

(٢) سورة آل عمران - ١٥٩

(٣) سورة الشورى - ٣٨

ولعمل قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة
لائمة المسلمين وعامتهم تعد أساسا صحيحا لما يسمى الآن مجلس الشعب
أو مجلس الأمة أو مجلس الشيوخ . فإن مهمة هذه المجالس هي
المراقبة لتصرفات الحاكم ومحاسبة المسؤولين ..

وإن القول بأن الديمقراطية كفر قول ملقى على عواهنه
ليس له صفاء الفهم للدين ولالدنيا ، فإنه لامشاحة في الاصطلاح .
كذلك فإن القول بأن السلطة للشعب كفر مراقة فكرية ، فإن
مجتمع المؤمنين هو الذي يراقب الحاكم وهو الذي يعينه وهو الذي
يعزله ..

ثم إن في مصالح الدولة ما يحتاج إلى تشريعات ليس لها نص
في كتاب الله ولا سنة رسوله ..

ولهذا كانت الأدلة الشرعية قائمة على :

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - السنة الصحيحة
- ٣ - الإجماع
- ٤ - القياس
- ٥ - الاستحسان
- ٦ - المصالح المرسلة
- ٧ - العرف
- ٨ - الاستصحاب
- ٩ - شرع من قبلنا .

ويمكن مراجعة معاني هذه الأدلة في كتب أصول الفقه (١) .

ومن هنا فإن ما يسمى بالحكومة الدينية — كما هو المصطلح الغربي المسمى الشيوقراطية — والتي تقوم على نظرية الحق الإلهي وعصمة الملوك وتقديس الحكام ، لا علاقة لها بالإسلام وتتنافى مع عقيدة التوحيد الخالص لله رب العالمين ، وقد رفضها القرآن المجيد بمثل قوله تعالى : اتخذوا أحيارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ، (٢) .

ولعل المناظرة التي جرت في معرض الكتاب الدولي بالقاهرة بتاريخ ٤ من رجب سنة ١٤١٢ هـ — ١٩٩٢/١/٨ م حول الحكومة الدينية والحكومة المدنية ، في مواجهة ساخنة بين الإسلاميين والعلمانيين — كانت في غير محلها ، فالحكومة الدينية لا تمثل الإسلام ، والحكومة المدنية ليست وفقا على العلمانيين ..

فإن الحكومة الإسلامية نموذج فريد بين أنواع الحكم

(١) راجع كتاب «أصول الفقه» للشيخ عبد الوهاب خلاف .

(٢) سورة التوبة — ٣١

التي تعارف عليها البشر قديما وحديثا .. إنها ليست دينية معصومة
وليس مدينة قائمة على أموال البشر ، لكنها إسلامية ترقض حكم
الله وتجتهد في شئون الدنيا ، تعتصم بالله وتمتلك ناصية المادة ، تقيم
حدود الله وتممر الأرض والحياة ..

إنها الحكومة الإسلامية وكفى .. ١١

وإن الخطبة الأولى التي وجهها الخليفة الأول أبو بكر الصديق
إلى الأمة عقب توليته توضح ما نريد .. لقد قال :

أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنتم
فأهينوني وإن أسأت فتقوموني ..

الصدق أمانة والسكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى هندی
حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى
أخذ الحق منه إن شاء الله ..

لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خسنه لهم الله بالذل ،
ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا همهم الله بالبلاء ..

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله
فلا طاعة لي عليكم ..^(١)

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٦ ص ٣٠١ ط مكتبة المعارف.

المبحث الخامس

الحكم على الفرق الإسلامية

— الأصول والفروع

— الحكم بالتكفير على الفرق

الأصول والفروع

انقسم المسلمون إلى فرق متعددة في الأصول وفي الفروع .
ويعنى بالأصول الأمور المتصلة بالعقائد ، ويعنى بالفروع الأمور
المتصلة بالعبادات والمعاملات .

وقد حكى الإمام الشهرستاني التفرقة بين الأصول والفروع
فقال :

« قال بعض المتكلمين : الأصول معرفة الباري تعالى
بوحدايته وصفاته ومعرفته الرسل بآياتهم وبياناتهم ، وبالجملة كل
مسألة يتعين الحق فيها بين المتخاصمين فهي من الأصول .

ومن المعلوم أن الدين إذا كان منقسما إلى معرفة وطاعة ،
والمعرفة أصل والطاعة فرع ، فمن تكام في المعرفة والتوحيد كان
أصوليا ، ومن تكام في الطاعة والشريعة كان فروعيا .

فالأصول هي موضوع علم الكلام والفروع هي موضوع علم
الفقه .

وقال بعض العقلاء : كل ما هو معقول ويتوصل إليه بالنظر
والاستدلال فهو من الأصول ، وكل ما هو مظنون أو يتوصل إليه
بالقياس والاجتهاد فهو من الفروع ،^(١) .

(١) المثل والنحل - تحقيق محمد سيد كيلاني ج ١ ص ١ ط الحلبي .

وعلى هذا فالفرق الأصولية المتصلة بالعقائد مثل الجهمية
والقدرية والسلف والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية إلخ

وفرق الفروع مثل الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة .

وهناك فرق تجمع في خلافها بين الأصول والفروع مثل
الشيعة والسنة ، فبينهما خلاف عقدي يتعلق بالإمامة هل هو ركن
من أركان الدين أو مصلحة من مصالح المسلمين ؟

وهل الإمامة بالنهي والقيمين أو بالشورى والاختيار ؟

ولكل من السنة والشيعة مذاهب فقهية تتعلق بالعبادات
والمعاملات .

ولا حرج في الاختلاف حول الفروع فهو لا يمثل شقاقا
في الأمة طالما كان في إطار ضوابط الاجتهاد بل إنه يعد من باب
الرحمة ويسر التشريع .

أما اختلاف الأصول فهو اختلاف مذموم ، ورغم المذمة التي
تلحق أصحابه إلا أنه لم يصل بين الفرق الإسلامية (١) إلى مرتبة
أن يقال هذا كافر وذاك مؤمن .

(١) الفرق الغالية كأصحاب ابن سبأ والياب والبهاء ليست إسلامية
لأن الخلاف معها يتعلق بأصل من أصول الدين وهو النبوة وختم
الرسالة .

فالمسلمون رغم اختلافهم تجمعهم كلمة التوحيد ولا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ويتحلقون حول السكينة المشرفة ، وتخشع قلوبهم للقرآن الكريم ، ويلتزمون بأركان الإسلام من صلاة وزكاة وصيام وحج .
واختلافهم حول بعض مسائل العقيدة لا يخرج بهم عن هذه الأصول .

وعلى سبيل المثال : اختلاف علماء الفرق في مسألة الصفات الإلهية هل هي عين الذات أو غير الذات ، أو لا هو ولا غيره .
فذهب المعتزلة والفلاسفة إلى الأول ، وجمهور المتكلمين إلى الثاني ، والأشعري إلى الثالث .

وقدم الشيخ الهوانى تحقيقاً لقول الفلاسفة بغيرية الصفات بأن ذاته تعالى من حيث إنه مبدأ لا يكشف الأشياء عليه — علمه ولما كان مبدأ الانكشاف على ذاته بذاته ، كان طالما بذاته .

وكذا الحال في القدرة والإرادة وغيرها من الصفات ، قالوا : وهذه المرتبة أعلى من أن تكون الصفات مغايرة للذات ، فإننا مثلاً نحتاج في انكشاف الأشياء علينا إلى صفة مغايرة لنا ، قائمة بنا ، وهو تعالى لا يحتاج إليها ، بل بذاته تنكشف الأشياء عليه .

ولذلك قيل : محصل كلامهم في الصفات وإثبات نتائجها

وغاياتها ، وأما المعتزلة فظاهر كلامهم أنها عندهم من الاعتبار العقلية التي لا وجود لها في الخارج .

والقول المعتمد أن مسألة زيادة الصفات وعدم زيادتها ليست من الأصول التي يتعلق بها تكفير أحد الطرفين ، ونقل الشيخ الدواني عن بعض الأصفياء أنه لا يرى بأساً في اعتقاد أحد طرفي النقي والإثبات في هذه المسألة (١) .

وساق الإمام الشهرستاني نماذج أخرى فقال :

المختلفان في مسألة الكلام ليعا يتواردان على معنى واحد بالنقي والإثبات .

فإن الذي قال : هو مخلوق ، أراد به أن الكلام هو الحروف والأصوات في اللسان ، والرقوم والكلمات في الكتابة ، قال : وهذا مخلوق .

والذي قال : ليس بمخلوق ، لم يرد به الحروف والرقوم ، وإنما أراد به معنى آخر فلم يتواردا بالتنازع في الخلق على معنى واحد .

(١) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين — تحقيق

د. سليمان ديبا - ص ٢٧٨

وكذلك في مسألة الرؤية فإن النافي قال : الرؤية إنما هي اتصال شمع بالمرئ ، وهو لا يجوز في حق البسائط تعالى ، والمثبت قال : الرؤية إدراك أو علم مخصوص ، ويجوز تعلقه بالبارئ تعالى ، فلم يتوارد النفي والإثبات على معنى واحد ، إلا إذا رجع الكلام إلى إثبات حقيقة الرؤية فيتنفكان أولاً هل أنها ماهية؟ ثم يتكلمان نفيًا وإثباتًا ، وكذلك في مسألة الكلام يرجعان إلى إثبات ماهية الكلام ثم يتكلمان نفيًا وإثباتًا ، وإلا فيمكن أن تصدق القصةان ، (١) .

(١) الملل والنحل — تحقيق محمد سيد كيلاني ١٥ ص ٢٠٢
(٦ — قضية التكفير)

الحكم بالتكفير على الفرق

وإذا كانت بعض الفرق تكفر مخالفيها فنحن لا نكفر هؤلاء المكفرين ولا كنا مثلهم في الضلالة وإنما ننصدهم ونوضح لهم المنهج ونرجو لهم المغفرة والاستقامة .

ولقد قال الإمام الباجوري في شرحه على الجوهرية :

« ولم يكفروا (أى الخوارج) بتكفير مرتكب الذنوب ، مع أنه من كفر مؤمنا كفر لأنهم قالوا ذلك بتأويل واجتهاد » .

وهناك حديث صحيح يقول فيه النبي ﷺ :

« إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما » .

وفي رواية :

أيما امرئ قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه ، .

وفي رواية :

ومن دعا رجلا بالكفر أو قال : عدوا لله وليس كذلك إلا حار عليه ، .

وفي توجيه هذه النصوص أوجه ذكرها الإمام النووي هي :

أحدهما أنه محمول على المستعمل لذلك وهذا يس كفر ، فعلى هذا معنى « باء بها » أى بكلمة الكفر ، وكذا « حار عليه » وهو معنى « رجعت عليه » أى رجع عليه الكفر ، فبإساءة وحار ورجع بمعنى واحد .

والوجه الثاني : معناه رجعت عليه نقيضته لأخيه ومعصية تكفيره .

والثالث : أنه محمول على الخوارج المكفرين للمؤمنين ، وهذا الوجه نقله القاضي عياض رحمه الله عن الإمام مالك بن أنس . وهو ضعيف ، لأن المذهب الصحيح المختار الذى قاله الأكثرون والمحققون أن الخوارج لا يسكرون كسائر أهل البدع .

والوجه الرابع : معناه أن ذلك يقول به إلى الكفر ، وذلك أن المعاصى كما قالوا — يريد الكفر ، ويخاف على المكث منها أن يكون عاقبة شعومها المصير إلى الكفر ، ويقيد هذا الوجه ما جاء فى رواية لأبي عوانة الاسفرايينى فى كتابه المخرج على صحيح مسلم . فإن كان كما قال وإلا فقد باء بالكفر ، وفى رواية « إذا قال لأخيه يا كافر وجب الكفر على أحدهما » .

الوجه الخامس : معناه فقد رجع عليه تكفيره ، فليس الراجع حقيقة الكفر بل التكفير لكونه جعل أخاه المومن كافرا فكأنه كفر نفسه ، إما لأنه كفر من هو مثله ، وإما لأنه كفر من لا يكفره

إلا كافر يعتقد بطلان دين الإسلام .. والله أعلم^(١) .

وقد ساق الإمام أبو حامد الغزالي موقفه من قضية تكفير
الفرق فقال :

المعتزلة والمثبته والفرق كلها سوى الفلاسفة ، وهم الذين
يصدقون ولا يجوزون الكذب لمصلحة وغير مصلحة ، ولا يشتغلون
بالتعميل لمصلحة الكذب بل بالتأويل واسكنهم خطائون في التأويل
— فقولاً أمرهم في محل الاجتهاد .

والذي ينبغي أن يجمل إليه المحصل الاحتراز من التكفير
ما وجد إليه سبيلاً فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى
القبلة ، المصرحين بقول « لا إله إلا الله » محمد رسول الله خطأ .

والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أمون من الخطأ في سفك
مجموعة من دم مسلم ، وقد قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل
الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا مني
دماهم وأموالهم إلا بجهنم » .

ثم قال الغزالي : ودليل المنع من تكفيرهم أن الثابت عندهما
بالنص تكفير المكذب للرسول ، وهؤلاء ليسوا مكذبين أصلاً ،
ولم يثبت لنا أن الخطأ في التأويل موجب للتكفير ، فلا بد من دليل

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٢ ص ٥٠

عليه ، وثبت أن العصمة مستفادة من قول لا إله إلا الله ، قطعاً ، فلا يدفع ذلك إلا بقاطع .. ، (١) .

ولعل مما يتأيد به رأى الغزالي هنا حديث أسامة بن زيد ، فى صحيح مسلم بسنده عن أسامة قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة ، فصبحنا القوم فهزمنهم ، ولحقنا أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشيناه قال لا إله إلا الله ، فكف عنه الأنصارى وطعنته برمحى حتى قتلته ، فلما قدمنا بلغ ذلك النبى ﷺ فقال لى : يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ، ؟ قلت يا رسول الله إنما كان متعوذاً ، فقال : أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ، ؟ فما زال يكررها على حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبلى ذلك اليوم ، .

لقد استشهد أسامة عظم الذنب حتى تمنى أن يكون لإسلامه بعد هذه الحادثة المقلمة وليس قبلها لأن الإسلام يجب ما قبله ويمحو ما سلف من الذنوب . .

وجاءت روايات قضيف مزبدا من الحواريين بين الرسول الكريم وبين أسامة .

فى رواية : قال الرسول ﷺ : أقال لا إله إلا الله وقتلته ١٩

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٦ ط صحيح سفة ١٩٦٢

قال أسامة : يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح .

قال الرسول ﷺ : أفلا شققت هن قلبه حتى تعمس أم قالها
أم لا ؟

فأزال يكررها .

وفي رواية أخرى :

قال الرسول الكريم : لم قتلتها ؟

قال أسامة : يا رسول الله أوجع في المسلمين وقتل فلانا
وفلانا ، وسمى له نفراً .. وإني حملت عليه فلما رأى السيف قال لا إله
إلا الله .

قال الرسول ﷺ : أقتلته ؟

قال أسامة : نعم .

قال الرسول ﷺ ، فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت
يوم القيامة ؟

قال أسامة : يا رسول الله استغفر لي .

قال الرسول ﷺ : وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت
يوم القيامة ؟

فجعل لا يزيد به أن يقول كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا
جاءت يوم القيامة ؟

المبحث السادس

حديث افتراق الأمة

— نصوص الحديث وتعداد الفرق

— شرح العلماء للحديث

— تعقيب وتعليق

• خطأ الحصر

• المراد بالأمة

• مفهوم الفرقة الناجية

• المراد من قوله «كلها في النار» ..

نصوص الحديث وتعداد الفرق

يتردد كثيراً حديث مشهور على ألسنة العلماء حول الفرق الإسلامية ، ويتخذها البعض ذريعة للتكفير . .
وقد حظى هذا الحديث بأبحاث كثيرة واجتهادات متعددة
وذكره علماء الفرق في مقدمة كتبهم ، ونسوق هنا نماذج لأقوال
الباحثين :

١ — الإمام البغدادى ت — ٤٢٩ هـ :

بدأ الإمام عبد القاهر البغدادى كتابه « الفرق بين الفرق »
ببيان الحديث المأثور في افتراق الأمة ، وساق مجموعة
روايات منها :

• رواية أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « افترق
اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترق النصارى على اثنتين
وسبعين فرقة . وافترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » .

• رواية عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « لياتين
هل أمتى ما أتى هل بنى إسرائيل ، تفرق بنو إسرائيل على اثنتين
وسبعين ملة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة ، تزيد عليهم ملة » ،

كلهم في النار إلا ملة واحدة ، قالوا : يا رسول الله من الملة الواحدة التي تنقلب ^(١) ؟

قال: ما أنا عليه وأصحابي .

• رواية أنس عن النبي ﷺ قال : إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة ، ثم علق الإمام البغدادى قائلا ^(٢) :

وقد علم كل ذى عقل من أصحاب المقالات المنسوبة إلى الإسلام أن النبي عليه السلام لم يرد بالفرق المذمومة التي عددها من أهل النار — فرق الفقهاء الذين اختلفوا في فروع الفقه مع اتفاقهم على أصول الدين ، لأن المسلمين فيما اختلفوا فيه من فروع الحلال والحرام على قولين :

أحدهما : قول من يرى تصويب المجتهدين كلهم في فروع الفقه ، وفرق الفقه كلها عندهم مصيبون .

والثاني : قول من يرى في كل فرع تصويب واحد من المختلفين فيه وتخطئة الباقيين من غير تضليل منه المخطئ فيه .

(١) أى تنقلب راجعة عن النار .

(٢) الفرق بين الفرق ص ٦ ط دار الآفاق الجديدة — بيروت .

ولأنما فصل النبي عليه السلام بذكر الفرق المذمومة — فرق أصحاب الأهواء الضالة الذين خالفوا الفرقة الناجية في أبواب العدل والتوحيد أو في الوعد والوعيد أو في بابي القدر والاستطاعة أو في تقدير الخير والشر ، أو في باب الهداية والضلالة ، أو في باب الإرادة والمشيئة أو في باب الرؤية والإدراك ، أو في باب صفات الله عز وجل وأسمائه وأوصافه ، أو في باب من أبواب التعديل والتجويد أو في باب من أبواب النبوة وشروطها ونحوها من الأبواب التي اتفق عليها أهل السنة والجماعة من فريقى الراى والحديث على أصل واحد خالفهم فيها أهل الأهواء الضالة من القدرية والخوارج والروافض والنجارية والجهمية والمجسمة والمشيئة ومن جرى مجراهم من فرق الضلال . .

ثم عد الإمام البغدادى الفرق الضالة وحاول الإلزام بالعدد الوارد ، وحين أحس بتكاثر عددها هن اثنتين وسبعين فرقة أخذ يخرج بعض الفرق عن دائرة الإسلام مثل الباطنية فقال (١) :

وليس الباطنية من فرق ملة الإسلام بل هى من فرق المجوس على ما نبينه بعد هذا وظهروا في أيام محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بخراسان ...

(١) المرجع السابق ص ١٦

- ٩٢ -

وحين تحدث عن الروافض قال (١) :

فأما غلاتهم الذين قالوا بإلهية الأئمة وأباحوا محرمات الشريعة واستقطوا وجوب فرائض الشريعة كالإيمانية والمغيرة والجناحية والمنصورية والخطابية والحلولية ومن جرى مجراهم فسام من فرق الإسلام وإن كانوا منتسبين إليه .

وحين تحدث عن الخوارج قال (٢) :

واليزيدية منهم أتباع ابن يزيد بن أنيس ليست من فسرق الإسلام لقولها بأن شريعة الإسلام تنسخ في آخر الزمان بفى يبعث من العجم ، وكذلك جملة المجرادة فرقة يقال لها الميمونية ليست من فرق الإسلام لأنها أباحت مسكاح بنات البنات وبنات البنين كما أباحته المجوس ...

وما زال إحساسه بكثرة الفرق مسيطرا عليه حتى إنه دمج بعض الفرق في بعض فقال (٣) :

وأما البخرارية فإنها اليوم بالرأى أكثر من عشر فرق ، وmergedها في الأصل إلى ثلاث فرق برفونية وزعفرانية ومستدركة .

(١) المرجع السابق ص ١٧

(٢) المرجع السابق ص ١٨

(٣) المرجع السابق ص ١٩

٢ - الإمام الشهرستاني ت ٥٤٨ هـ :

ألف الإمام أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني كتابه
"الملل والنحل"، وذكّر في مقدمته الأولى عن بيان تقسيم أهل العالم
ما يتعلق بالفرق فقال^(١):

فأهل الأهواء ليست تنضبط مقالاتهم في عدد معلوم ، وأهل
الديانات قد انحصرت مذاهبهم بحكم الخبر الوارد فيها، فافترقت
المجوس على سبعين فرقة، واليهود على إحدى وسبعين فرقة ،
والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، والمسلمون على ثلاث وسبعين
فرقة ، والناجية أهدأ من الفرق واحدة ، إذ الحق من القضيتين
المتقابلتين في واحدة .

ولا يجوز أن يكون قضيتان متناقضتان متقابلتان على شرايع
التقابل إلا وأن تقسما الصدق والكذب ، فيكون الحق في إحداهما
دون الأخرى . ومن المحال الحكم على المتضادين المتضادين في أصول
المعقولات بأنهما محققان صادقان .

وإذا كان الحق في كل مسألة عقلية واحداً ، فالحق في جميع
المسائل يجب أن يكون مع فرقة واحدة ..

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١٣ - تحقيق محمد سيد كيلاني .

وإنما عرفنا هذا بالسمع ، وعنه أخبر التزمل في قوله هـ ووجل
« ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » (١) ، وأخبر النبي عليه
الصلاة والسلام « ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية
منها واحدة وثباقون هلكي ، قيل وعن الناجية ؟ قال : أهل السنة
والجماعة ، قيل : وما السنة والجماعة ؟ قال : ما أنا عليه اليوم
وأصحابي .. »

وقال عليه الصلاة والسلام ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على
الحق إلى يوم القيامة .

وقال عليه الصلاة والسلام « لا تجتمع أمتي على ضلالة ... »

وأرجع الإمام الشهرستاني أصول الفرق إلى أربع هي :
القدوية — الصفائية — الخوارج — الشيعة .

وجعل كل أصل ينشعب إلى فرق ، وأوصلها إلى ثلاث وسبعين
فرقة ثم قال (٢) :

وقد نجزت الفرق الإسلامية وما بقيت إلا فرقة الباطنية ، وقد
أورد أمهات التصانيف في كتب المقالات إما خارجة عن الفرق
وإما داخلة فيها ، وبالجملة هم قوم يخالفون الاثنين والسبعين فرقة .

(١) سورة الأعراف — الآية ١٨١

(٢) الملل والنحل ص ١٩٠

٣ - الإمام ابن الجوزي ت ٥٩٧ هـ :

ألف الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي كتابه « تلبيس إبليس » (١) ، وبدأه بباب الأمر بلزوم السنة والجماعة ، وذكر بعض الأحاديث في ذلك منها أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطب بالجماعة فقال : قام فينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : من أراد منكم بحبوبة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد .

ثم ساق الإمام ابن الجوزي مجموعة روايات حول افتراق الأمة منها :

• رواية ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل ، حذو النعل بالنعل ، حتى
 إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك ،
 وإن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة ، وتفرقت أمتي على
 ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة ، قالوا : من هي
 يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي ، قال الترمذي : هذا
 حديث حسن غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه .

(١) تلبيس إبليس ص ٥ ط إدارة الطباعة المنيرية :

• رواية معاوية بن أبي سفيان أنه قام فقال : ألا إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قام فينا فقال : ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة، وإنه سيخرج من أمي أقوام تجاري^(١) بهم تلك الأهواء كما يتجاري الكلب بصاحبه ،

وحاول الإمام ابن الجوزي حصر هذه الفرق فجعل أصولها ستة وهي :

الحرورية — القدورية — الجهمية — المرجئة — الرافضة — الجبرية .

ثم ادعى أن كل أصل ينقسم إلى اثني عشرة فرقة فيكون المجموع اثنتين وسبعين فرقة كلها هالكة إلا أهل السنة والجماعة

(١) بحذف إحدى التاءين وأصلها تتجاري أى تدخل وتسرى تلك الأهواء كما يسرى داء الكلب — يفتع الكاف واللام — الذي يعرض للإنسان من عض الكلب .

شرح العلماء للحديث

في كتاب : هون المعبود - شرح سنن أبي داود، قال العلامة
 أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي (١) .
 « افترت اليهود .. إلخ ، هذا من معجزاته ﷺ لأنه أخبر
 عن غيب وقع .

قال العلامة : قال عييننا : ألف الإمام أبو منصور هبة القاهر
 ابن طاهر التميمي في شرح هذا الحديث كتابا قال فيه : قد علم
 أصحاب المقاولات أنه صلى الله عليه وسلم لم يرد بالفرق المذمومة
 المختلفة في فروع الفقه من أبواب الحلال والحرام ، وإنما قصد
 بالذم من خالف أهل الحق في أصول التوحيد ، وفي تقدير التحدير
 والشر ، وفي شروط النبوة والرسالة ، وفي الوالاة الصداقة وما جرى
 مجرى هذه الأبواب ، لأن المختلفين فيها اندكفر بعضهم بعضا بخلاف
 النوع الأول فإنهم اختلفوا فيه من قصور تكفير ولا تفسيق
 للدخالف فيه .

فيرجع تأويل الحديث في افتراق الأمة إلى هذا النوع من

(١) ج ١٢ ص ٣٤٠ تحقيق عبد الرحمن عثمان طه المكتبة السلفية
 بالمدينة المنورة .

(٧ — قضية التكفير)

الاختلاف وقد حدث في آخر أيام الصحابة خلاف القدرية من معبد الجهنى وأتباعه، ثم حدث الخلاف بعد ذلك شيئا فشيئا إلى أن تكاملت الفرق الثلاثة اثنتين وسبعين فرقة، والثالثة والسبعون هم أهل السنة والجماعة وهي الفرقة الناجية

وفي شرح العقائد المضنية لجلال الدين الدواني قال (١) :

قال النبي ﷺ [ستفترق أمتي] أي أمة الإجابة وهم الذين آمنوا به ﷺ، وهو الظاهر فإن أكثر ما ورد في الحديث على هذا الأسلوب أربع به أهل القبلة .

قال بعض شراح الحديث : ولو حمل على أمة الدعوة لكان

له وجه .

وأنت تعلم بعده هذا فإن فرق الكفر أكثر من هذا العدد

بكثير .

[ثلاثا وسبعين فرقة] السنين إما للتأكيد فإن ما هو متحقق الواقع قريب كما قيل في قوله تعالى : ولستوف يعطيك ربك فترضى، أو بمعناه الحقيقي إشارة إلى أن الاختلاف مستراخ عن حياته

ﷺ

(١) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والاسكلاميين - ج ١ ص ٤

تحقيق د. سليمان دنيا ط الحلبي .

وما يتوهم من أنه :

إن حمل على أصول المذاهب فهي أقل من هذا العدد .

وإن حمل على ما يشمل الفروع فهي أكثر منه .

توهم فاسد لا مستند له ، لجواز كون الأصول التي بينها مخالفة معتد بها ، بهذا العدد .

وقد يقال : لعلمهم في بعض من الأوقات بلغوا هذا العدد ، وإن زادوا أو نقصوا في أكثر الأوقات .

[كلها في النار] من حيث الاعتقاد ، فلا يرد أنه : إن أريد الخلود فيها فهو خلاف الإجماع فإن المؤمنين لا يخلدون فيها .

وإن أريد مجرد الدخول فهو مشترك بين الفرق ، إذ ما من فرقة إلا وبعضهم عصاة . والقول بأن معصية الفرقة الناجية مطلقة مغفورة بعيد جدا .

ولا يبعد أن يكون المراد استقلال مسكنهم في النار بالنسبة إلى سائر الفرق ترغيبا في تصحيح العقائد .

[إلا واحدة ، قيل ومن هم] أي الفرقة الناجية .

[قال : الذين هم على ما أنا عليه وأصحابي] رواه الترمذي .

والاصحاب جمع صعب، جمع صاحب، أوجع صعب مخفف
صعب (١) بمعنى صاحب، وهو من رأى النبي ﷺ مؤمنا به سواء كان
في حال البلوغ أو قبله أو بعده، طالت صحبته أولا .

[وهذه] إشارة إلى مقاصد هذه الرسالة [عقائد] المراد
بالعقائد ما يتعلق الفرض بنفس اعتقاده من غير تعلق بكيفية العمل
كمكروبه تعالى حيا قادرا إلى غير ذلك من مباحث الذات
والصفات .

وتسمى تلك الأحكام أصولا وعقائد واهتقادية .

يقابلها الأحكام المتعلقة بكيفية العمل كوجوب الصلاة
والزكاة والحج والصوم وتسمى شرائع وفروعا وأحكاما
ظاهرة .

[الفرقة الناجية وهم الأشاعرة] التابعون في الأصول
للشيخ أبي الحسن الأشعري، وهو منسوب إلى « أشعر »، وهي قبيلة
من اليمن، وقيل إلى جده « أبي موسى الأشعري »، رضى
الله عنه .

فإن قلت : كيف حكم بأن الفرقة الناجية هم الأشاعرة وكل
فرقة تزعم أنها الناجية ؟

(١) صعب الأولى بفتح فكسر، والثانية بفتح فكسر مشددة

قلت : سياق الحديث مشعر بأنهم المعتقدون لما روى عن النبي ﷺ وأصحابه ، وذلك إنما ينطبق على الأشاهرة ، فإنهم يتمسكون في عقائدهم بالأحاديث الصحيحة المروية عنه ﷺ وعن أصحابه رضي الله تعالى عنهم ، ولا يتجاوزون عن ظواهرها إلا لضرورة ، ولا يستعملون مع عقولهم كالمعتزلة ومن بعدهم حذوم ، ولا مع النقل عن غيرهم كالشيعة المتبعين لما روى عن أنبيائهم ولا عقائدهم العصمة فيهم .

تعقب وتعليق

١ — خطأ الحصر :

إن العلماء الذين اهتموا بحصر الفرق وبيان عددها — وقفوا عند زمانهم ونسوا أن الليالي حبل بالمذاهب والآراء والفرق والمعتقدات، وأن الاجتهادات لا تتوقف .

فيا ترى ماذا هم قائلون بعد ألف عام من تعدداهم للفرق وحصرها ؟ !

وماذا هم قائلون بعد ألفين أو ثلاثة آلاف ؟ !

إن العدد لا مفهوم له وليس مراداً به الحصر ، وهذا يجري كثيراً في أخبار القرآن وقصصه ، ولنقرأ قوله تعالى :

«ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم» (١) .

فالأبحر سواء كانت سبعة أو سبعين أو سبعمائة إن تنفذ كلمات الله .

ولنقرأ قوله تعالى :

«استغفر لهم أو لا يستغفر لهم ، إن نستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لا يهدي القوم الفاسقين» (١) .

فلاستغفار سبعين مرة أو أقل أو أكثر ان يغير حكم الله في المنافقين .

ومن هنا فالاستمساك بالعدد ثلاثا وسبعين فرقة من الفهم القاهر للحديث الشريف .

وقد جهد علماء الفرق أنفسهم في الوقوف عند هذا العدد فقاموا بمعاملات التحليل والتركيب والتقيض والبسط في حصر الفرق بما لا طائل من ورائه ، فالعبد الذي جعل الخوارج عشرين فرقة ، وابن الجوزي جعلهم اثنتي عشرة فرقة .

٢ — المراد بالامة :

إن تفسير الامة في قوله داعى، بأنها الامة الإسلامية ليس من اليقين في شيء. فإن أمة الرسول هي أمة الدعوة في المقام الأول ولا يراد بها أمة الإجابة إلا بقرائن .

وقد سجل القرآن أن كل نبي بعث إلى قومه وخاطبهم بإضافتهم إلى نفسه ، فنادى صالح وهود قومهما بهذا النداء «يا قوم» ، فقال تعالى «وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون» (١) .

وقال جل شأنه «وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم» (٢) .

ونادى موسى قومه بهذا النداء أيضا وكذلك نوح . . قال تعالى «وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم» (٣) .

وقال جل شأنه «إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك

(١) سورة الأعراف — الآية ٦٥

(٢) سورة الأعراف — الآية ٧٣

(٣) الصافات — الآية ٥

من قبل أن يأتيهم عذاب اليم قال يا قوم إني لكم نذير مبين، (١) .

فالقوم هنا بالنأ كيدهم قوم الدعوة، الذين جاءهم النبي وبلغهم دعوة الله وناشدواهم اتباعها فمنهم من آمن ومنهم من كفر .

وجاء لفظ الأمة في القرآن بمعنى أمة الدعوة فقال سبحانه ،
«ثم أرسلنا رسلنا تترأ كل أمة رسولا فلو لم يؤمنوا ببعضنا
بعضنا رجعلناهم أحاديث فبعثنا لقوم لا يؤمنون» (٢) .

فهذه الآية صريحة في استخدام أمة الرسول بمعنى أمة الدعوة .

وعلى هذا فمحاولة حصر عدد الفرق في دائرة المسلمين ظن
ليس بيقين ، ولو فسرنا الأمة في الحديث بأنها أمة الدعوة لأوحنا
واسترحنا ، فالمسلمون جميعا أمة واحدة في مواجهة أمم الكفر المنتشرة
في العالم والتي تتجدد تحت أسماء ومذاهب وفرق في كل وقت وحين .

وقد حكم الله بأن المسلمين أمة واحدة فقال وإن هذه أممكم
أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون، (٣) .

فالمسلمون — رغم اختلافهم — ملة واحدة في مواجهة ملل

(١) نوح — الآية ١ ، ٢

(٢) سورة المؤمنون — الآية ٤٤

(٣) سورة الأنبياء — الآية ٩٢

فاسدة ، ومذهب واحد في مواجهة مذاهب باطلة ، وفرقة واحدة في مواجهة فرق ضالة .

وما قاله جلال الدين الدواني من بعد حمل الأمة على أمة الدعوة ليس بشيء ، وما علل به رأيه أكثر خرابة ، فالقول بأن فرق الكفر أكثر من العدد الوارد في الحديث ، هو قول مرفوض لأن العدد لا مفهوم له سواء قلنا إنها أمة الإجابة أو أمة الدعوة .

٣ — مفهوم الفرقة الناجية :

إن قوله ﷺ في وصف الفرقة الناجية بما أنا عليه وأصحابه قضية متفق عليها حتى ولو لم ترد نصا ، ففقتضى الإيمان بالرسالة والرسول أن تكون الفرقة الناجية هي أمة الإسلام ، وهم أهل السنة والجماعة بالمفهوم الشرعي .

وكل الفرق الإسلامية تدعى لنفسها أنها أهل السنة والجماعة .

وقد نقل جلال الدين الدواني أن نصير الدين الطوسي حين الفرقة الناجية بأنها الإمامية من الشيعة (١) .
وعينها كثير من علماء الفرق بأنها الأشاعرة .

(١) الشيخ محمد عبده بين المتكلمين والفلاسفة ١٨ ص ٢٩

تحقيق د. سليمان دنيا ط الحلبي .

وقال الإمام ابن تيمية : إن الحق الناس بأن تكون هي
الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة الذين ليس لهم متبوع يتعصبون
له إلا رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم
تميزا بين صحيحها وسقيمها (١).

واليوم يتنازعها السلفيون وأنصار السنة والعالمون بالجمعية
الشرعية والجماعات الإسلامية بفروعها المتعددة ..

لنا على يقين بأن الحق لا تحصره فرقة بعينها ، والعصمة
لا تعرف لإمام من الأئمة ، وكل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه
إلا صاحب الروضة الشريفة ..

فقد يكون الحق في مسائل لدى المعتزلة أو الأشاعرة أو
الشيعة ..

وقد تكون هناك آراء نرفضها لدى هؤلاء جميعها . . وقد
يدور الخلاف حول قضايا ليست من أصول الدين ولا يترتب عليها
إيمان أو كفر .

ومن هنا فإننا ننازع الشمرستان في قوله :

إذا كان الحق في مسألة عقلية واحدا فالحق في جميع المسائل يجب أن يكون مع فرقة واحدة ،

فإذا كان المقصود بالفرقة الواحدة الدين الواحد يعنى الإسلام فهذا صحيح وإذا كان المقصود فرقة معينة داخل فرقة المسلمين فهذا غير صحيح ، فليست كل آراء فرقة معينة عقيدة يجب التمسك بها أو يجب رفضها ، فالتمسك بكل الآراء أو رفض كل الآراء لدى فرقة خاصة ليس مما يلزم . .

قال ابن تيمية (١) :

وعما ينبغي أيضا أن يعرف أن الطوائف المنسوبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام : على درجات ، منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة .

ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد من السنة منه ، فيكون محمودا فيما رده من الباطل وقاله من الحق ، لكن يكون قد تجاوز العدل في رده بحيث جمده بعض الحق وقال بعض الباطل ، فيكون قد رد بدعة كبيرة ببذعة أخف منها ،

ورد باطلا بباطل أخف منه ، وهذه حال أكثر أهل السلام
المنتسبين إلى السنة والجماعة .

ومثل هؤلاء إذا لم يفعلوا ما ابتدعوه قولا يفارقون به جماعة
المسلمين ، يوالون عايبه ويعادون كان من نوع الخطأ ، والله سبحانه
وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك .

ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها ،
لهم مقالات قالوها باجتهاد وهي تخالف ما ثبت في الكتاب
والسنة ...

٤ - المراد من قوله « كلهم في النار » :

إن قوله ﷺ « كلهم في النار إلا واحدة » لا يعني كفر باقي.
الفرق إن حملنا الأمة على أمة الإجابة ، ودخول المؤمن النار
لا يكون على وجه الخلود الأبدي ، وقد يستحق المؤمن النار
ولكن يعفو الله عنه ، فغفرة ما دون الشرك في إطار المشيئة لقوله
تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »
ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ، (١) .

والفرق الإسلامية تشترك في أصول الدين وتترجم عقيدتها في جوهر الإيمان ، وللإمام ابن تيمية كلام طاب في هذا المقام فقد حكى أن السلف والأئمة لم يتنازعوا في عدم تكفير المرتبة والشيعة المفضلة ونحو ذلك ، وقال : ولم تختلفصوص أحمد في أنه لا يكفر هؤلاء وإن كان من أصحابه من حكى في تكفير جميع أهل البدع — من هؤلاء وغيرهم — خلافا عنه أو في مذهبه ، حتى أطلق بعضهم تخليد هؤلاء وغيرهم ، وهذا غلط على مذهبه وعلى الشريعة .

ثم قال : ومنهم من لم يكفر أحدا من هؤلاء إلحاقاً لأهل البدع بأهل المأصفي . قالوا فكيف أن من أصول أهل السنة والجماعة أنهم لا يكفرون أحدا بذنب فكذلك لا يكفرون أحدا ببدعة .. .

ثم ذكر ابن تيمية فصل الخطاب بالفتية على أصليين :

أحدهما : أن يعم أن الكافر في نفس الأمر من أهل الصلاة لا يكون إلا منافقا فإن الله منذ بعث محمدا ﷺ وأنزل عليه القرآن وهاجر إلى المدينة صار الناس ثلاثة أصناف : مؤمن به ، وكافر به مظهر الكفر ، ومنافق مستخف بالكفر .. ولهذا ذكر الله هذه الأصناف الثلاثة في أول سورة البقرة ، ذكر أربع آيات في نعم المؤمنين ، وآيتين في المكفار ، وبضع عشرة آية في المنافقين .

وبناء على هذا الأصل قال ابن تيمية :

فأهل البدع فيهم المنافق الزنديق فهذا كافر ، ويكثر مثل هذا في الرافضة والجهمية فإن رؤسائهم كانوا منافقين زنادقة ، وأول من ابتدع الرفض كان منافقا ، وكذلك التجمهم فإن أصله زندقة وبنفاق .

وهذا المعنى الذى يؤكده ابن تيمية يشير إلى أن أهواء الإسلام قد يتظاهرون بالصلاة وغيرها من العبادات ليثيروا الفتنة ويموتوا الأمة كما فعل المنافقون على عهد رسول الله ﷺ ..
ويفرق ابن تيمية بين هؤلاء الزعماء الماجورين المنافقين وبين أتباعهم من طامة المسلمين فيقول :

ومن أهل البدع من يكون فيه إيمان باطنا وظاهرا لكن فيه جهل وظلم حتى أخطأ ما أخطأ من السنة ، فهذا ليس بكافر ولا منافق ، ثم قد يكون فيه عدوان وظلم يكون به فاسقا أو عاصيا ، وقد يكون غفطنا متأولا مغفورا له خطاه ، وقد يكون مع ذلك معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه .

الأصل الثانى :

أن المقالة قد تكون كفرا ، كجهل وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وتحليل الزنا والخمر والميسر ونسكاح ذرات

المحارم ، ثم القائل بها قد يكون بحيث لم يبلغه الخطاب ، وهذا لا يكفر به جاحده كمن هو حديث هدد بالإسلام ، أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه شرائع الإسلام ..

فقد لا يحكم بكفره بمجرد شيء مما أنزل على الرسول ، إذا لم يعلم أنه أنزل على الرسول ..

ومقالات الجهمية هي من هذا النوع فإنها جمعت لما هو الرب تعالى عليه ولما أنزل الله على رسوله .

ثم علل الإمام ابن تيمية عدم تكفيره لأهل البدع بأموه ثلاثة هي :

١ - التأويل فهم متأولون وليسوا رادين لما أنزل ،

٢ - وأن أصل الإيمان الإقرار بالله وأن أصل الكفر الإنكار لله وهم ليسوا منكرين .

٣ - وأن لهم دلائل وشبهات قد تخفى على كثير من المؤمنين .
وهذه هي عبارته بالنص :

وتعلط مقالاتهم من ثلاثة أوجه :

أحدهما : أن النصوص المخالفة لقولهم في الكتاب والسنة والإجماع كثيرة جداً مشهورة وإنما يردونها بالتحريف ..

الثاني : أن حقيقة قولهم تعطيل الصانع ، وإن كان منهم من لا يعلم أن قولهم مستلزم تعطيل الصانع ، فكما أن أصل الإيمان الإقرار بالله فأصل الكفر الإنكار لله .

الثالث : أنهم يخالفون ما اتفقت عليه الملل كلها وأهل الفطر السليمة كلها لكن مع هذا قد يخفى كثير من مقالاتهم على كثير من أهل الإيمان حتى يظن أن الحق معهم لما يوردونه من الشبهات .

ويكون أرائك المؤمنون مؤمنين بالله ورسوله باطنا وظاهرا ، وإنما التبس عليهم واشتبه هذا كما التبس على غيرهم من أصنافه المبتدعة ، فهؤلاء ليسوا كفارا قطعاً ، بل قد يكون منهم الفاسق والمعاصي ، وقد يكون منهم المخطئ . المنقور له ، وقد يكون معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه به من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه .

واستدل ابن تيمية هل ذلك فقال :

وأصل قول أهل السنة الذي فارقوا به الخوارج والجهمية والمعتزلة والمرجئة أن الإيمان يتفاضل ويتبعض ، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وحينئذ تتفاضل ولاية الله وتتبعض بحسب ذلك (١) .

(١) راجع مجموع الفتاوى ج ٣ ص ٣٤٥ : ٣٥٨

(٨ - قضية التكفير)

• ذكر الدكتور عبد الحلیم محمود رأياً وجيهاً فقال (١) :

ولكن مما يدعو إلى الارتياح ويثلج الصدور أن الشمراني في ميزانه قد روى من حديث ابن الفجار ، وصححه الحماكم بلفظ ضريب وهو :

« ستترق أمتي على نيف وسبعين فرقة ، كلها في الجنة إلا واحدة ، .

وفي رواية عن الديلمي « الهالك منها واحدة ، .

وفي هامش الميزان عن أنس عن النبي ﷺ بلفظ :

تفرق أمتي على بضع وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا الزنادقة ، .

وما في هامش الميزان هذا مذکور في تخريج أحاديث مسند الفردوس للحافظ ابن حجر ، ولفظه :

« تفرق على بضع وسبعين فرقة ، كلها في الجنة إلا واحدة ، وهي الزنادقة ، . أسنده عن أنس .

(١) الففكبر الفلفسى فى الإسلام ج ١ ص ١٠٠ ط مكتبة

الأنجلو المصرىة سنة ١٩٦٨

وقال صاحب كشف الخفاء : ولعل وجه التوفيق أن المراد بأهل
الجنة في الرواية الثانية ولو مآلاً فتأمل .

٦ - وأخيراً نذكر رأى الإمام ابن حزم ، قال (١) :

ذكروا حديثاً عن رسول الله ﷺ — أن القدرية والمرجئة
يحبوس هذه الأمة ، وحديثاً آخر : تفترق هذه الأمة على بضع
وسبعين فرقة كلها في النار حاشا واحدة فهي في الجنة .

قال أبو محمد : هذان حديثان لا يصحان أصلاً من طريق الإسناد ،
وما كان هكذا فليس حجة عند من يقول بخبر الواحد ، فكيف
من لا يقول به ؟ ١١٤

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٣ ص ٢٤٧ — طبعة
دار الفكر .

المبحث السَّابِع

موالاة الكافرين

— آيات النهى عن الموالاة

— مفهوم الموالاة

— البر بأهل الذمة

آيات النهي عن موالاة الكافرين

هناك آيات قرآنية تحرم موالاة الكافرين ، وتعرض القضية بأساليب بيانية متعددة ، تنتهي كلها إلى رفض هذه الموالاة واجتنابها ، ويحاول بعض الناس فهم هذا الحكم على أنه قطع لكل علاقة مع غير المسلمين ، ومنع لكل تعامل معهم ، وإعلان للعداوة والبغضاء .

ونسوق بعض هذه الآيات ونبين المراد منها :

١ — قال الله تعالى : **لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهَا تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** ، (١) .

قالنبي هنا صريح ومباشر ، ويتأكد بسلب الإيمان ممن يقدم على موالاة الكافرين ، وتستثنى الآية الكريمة حالة الغلبة للكافرين والضعف للمؤمنين فتبيح التقية والمساواة بالظاهر لا بالباطن ، وباللسان لا بالقلب حتى يأمن المسلم على دمه وماله وعرضه .

٢ — قال الله تعالى : **دَبْشِرِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُونَ عِنْدَ الْمُعْذَرَةِ ، فَإِنْ الْعُرَةُ قَدْ جَمِعَتْ** ، (٢) .

(١) سورة آل عمران — الآية ٢٨

(٢) سورة النساء — الآية ١٣٨ ، ١٣٩

تستخدم الآية هنا أسلوب الاستهزاء في قوله « بشر » ، وتصفهم بالنفاق وتوعدهم بالعذاب الأليم ، إن هؤلاء يطالبون عزة موهومة ويسعون وراء آمال معسولة حين يوالون الكافرين ويظاهرونهم ، مع أن الحقيقة الغامضة عن هؤلاء هي أن العوة كلها لله تعالى ، وهو سبحانه يمنحها عباده المؤمنين ، فإن العاقبة للمتقوى ، وإن النصر لرسول الله ودعاة الحق في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

٣ — قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا للكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ، إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ، (١) » .

يأتى النهى هنا صريحا مسموقا ببناء التشريف حق يستحق المؤمنين الصادقين على الالتزام الكامل لحدود الله ، ثم تؤكد الآية أن موالاته الكافرين حجة كافية لإزالة بأس الله وعقابه على هؤلاء المنافقين .

٤ — قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منهم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتي

بالتفتيح أو أمر من عنده فيصيحوا على ما أمروا في أنفسهم نادمين، (١).

يأتى النهى هنا أيضا صريحا مسبوقا ببدء التشريف للمؤمنين، ومحمددا لبعض طوائف الكفر الذين يسيرون للإسلام وهم اليهود والنصارى، الذين يعاندون المؤمنين ويترهبون بهم الدوائر، وتقود الآية الكريمة أن موالاة هؤلاء الأعداء تخرج المسلم عن دائرة إسلامه وتهدى به إلى مشاركتهم المآثم، ومشابقتهم في الكفر واجتماعهم على الظلم... ولن يقرر الله أعين هؤلاء الكافرين ومواليهم، فستكون عاقبة أمرهم خسرًا، ولات ساعة مندم.

٥ — قال الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هوى ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين، (٢).

تبدأ الآية بالنداء الذى يعقبه النهى معللا بمواقف هؤلاء الكافرين الذين يستهزئون بشعائر الدين ويسخرون من المؤمنين.

٦ — قال الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق،

(١) سورة المائدة — ٥١ : ٥٢

(٢) سورة المائدة — ٥٧

يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم
جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ، تسرون إليهم بالمسدودة
وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعل منكم فقله ضل سواء
السبيل ، (١) .

هذه الآية الكريمة هي مفتتح سورة الممتحنة ، وتبطل فيها
الحقيقة كاملة وهي أن هؤلاء الكفار يحسّاهون بعبادة المؤمنين
ويضطرون أيديهم وألسنتهم بالسوء لكل ما هو حق وفضيلة ، فمن
يقدم على هؤلاء فقد انحرّف عن سبيل المؤمنين وخرج عن
دائرة الإيمان .

مفهوم الموالة

موالة الكافرين هي إنشاء لأمرار المؤمنين، واستعداد
لحرب الشيطان على حرب الله، ومناصرة لأعداء الأمة، واختراق
لصفوف المجاهدين .

إنها خيانة للعقيدة، وجناية على أخوة الإيمان، وجبن في
مواجهة الأعداء، وانفاق يثبط العزائم ويدفع إلى الخور ويسوق
إلى الهزيمة .

والآيات السابقة واضحة الدلالة على هذا المعنى تمام الوضوح،
ولو رجعنا إلى أسباب النزول التي يستعان بها على فهم الآيات
القرآنية لوجدناها تتطابق مع هذا المعنى كل التطابق .

ويسوق العلامة الواحدى حول قوله تعالى ولا يتخذ المؤمنون
الكافرين أولياء من دون المؤمنين ما يلى (١) .

قال ابن عباس : كان الحجاج بن عمرو، وكهمس بن أبي

(١) أسباب النزول للعلامة أبي الحسن علي بن أحمد الواحدى
النيسابورى ص ٧٢ ط مكتبة المتنبى بالقاهرة .

الحقيق، وقيس بن زيد - وهؤلاء كانوا من اليهود - يباطنون
نفساً من الانصار ليعتقوهم عن دينهم، فقال رفاعه بن المنذر
وعبد الله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر: اجتمعوا
هؤلاء اليهود واحذروا لرومهم ومبائطتهم لا يفتنوكم عن دينكم،
فأبى أولئك النفر إلا مبائطتهم وملذمتهم فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الكلبي: نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه
كانوا يتولون اليهود والمشركين بأنهم بالأخبار ويرجون أن
يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية
ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم.

وقال جبير عن الضحاك عن ابن عباس: نزلت في عبادة بن
الصامت الأنصاري وكان بدوياً ثقيلاً، وكان له حلفاء من اليهود
فلما خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب قال عبادة: يا أبا الله إن معي
خمسة رجال من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فاستظهر بهم
على العدو، فأنزل الله تعالى فلا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء،

فواضح من هذه الأسباب للنزول أن الموالاة كانت فتنة في
الدين وقام بها المنافقون وأرادوا بها هزيمة المسلمين، ولم يكن من
المنطق الاستعانة باليهود يوم الأحزاب وهم الذين ظاهروا
المشركين وتحالفوا معهم ضد المسلمين في المدينة.

وإذا اتخذنا نموذجاً آخر وليكن سبب النزول لهدر سورة
المتحفة ، لقد كان الرسول ﷺ يجهز لفتح مكة بعد ما نقضت
قريش عهدها الذي قطعت على نفسها بصالح الحديبية ، وأراد الرسول
الكريم أن يظل الأمر سراً حتى تتحقق المفاجأة العسكرية وليكن
أحد الصحابة وهو حاطب بن أبي بلتعة كتب خطاباً إلى قريش يعلمهم
فيه بخبر رسول الله ويكشف لهم الخطة العسكرية ويدعوهم إلى الخيطة
والخذر .

ونزل الوحي على رسول الله ﷺ بتفاصيل الموقف كله
وبيئت الرسول من يحضر الخطاب قبل أن يصل إلى قريش ، ويقف
حاطب يدافع عن نفسه : يا رسول الله لا تعجل على ، إنى كنت
أمراً ملصقاً في قريش ولم أكن من نفسها وكان من معك من
المهاجرين لهم قرابات يجمعون بها قراباتهم ، ولم يكن لي بمكة قرابة
فأجبت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يدا .

والله ما فعلته شاكاً في ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام .
وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه وكتابه لا يغنى عنهم شيئاً .
فصدقه الرسول وعذره ، وقام عمر بن الخطاب وقال :
دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق .

— ١٢٦ —

فقال الرسول ﷺ : « لانه قد شهد بدوا ، وما يدريك
يا عمر لعل الله اطالع اهل بدر فقال اعملوا ما شئتم قد
غفرت لكم ،

لقد قد الرسول للرجل سابق جهاده ، وهــذره في خطأ
حساباته ، ولكن تظل القضية هي هي ، فالإلـة الكافرين هي
الرضا بكفرهم والنعرة لهم .

البر بأهل الذمة

موالاة الكافرين بهذا المعنى السابق تختلف اختلافا كبيرا عن البر بأهل الذمة والتعاون مع كل من ألقى إلينا العلم ولم يظهر علينا أحدا .

فإن شواهد القرآن ووقائع السيرة النبوية تؤكد سماحة الإسلام والمسلمين ، وتؤكد التعاون المشترك لمصلحة الأمن العام ، قال الله تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ، » (١) .

لقد حددت هاتان الآيتان القضية تحديدا تاما ، فالبر بالمسلمين والنهي عن الموالاة للأعداء المحاربين .

وكلتا الآيتين من سورة الممتحنة التي بدأت بداية حاسمة تنهى عن موالاة أعداء الله وأعداء المؤمنين .

وإن سورة المائدة التي تكرر فيها النهي عن موالاة الكافرين
المحاربين قد أباحت الموائد المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب
المسلمين، كما أباحت التزوج من نسائهم، فقال تعالى واليوم أحل لكم
الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم،
والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من
قبلكم إذا آتيتهم من أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي
أخذان، (١).

ونلاحظ أن الآية الكريمة جعلت طعام أهل الكتاب من
الطيبات التي أحلها الله، كما جعلت في نساء أهل الكتاب محصنات
هفيفات يحافظن على طهارة العرض وشرف الحياة الزوجية.

ويحكى البخاري في صحيحه أنه كان غلام يهودي يخدم النبي
ﷺ فرض فأنه النبي ﷺ يهوده، فقام عند رأسه فقال له :
أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له أبوه، أطلع أبا القاسم،
فأسلم الغلام وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله،
فخرج عليه الصلاة والسلام وهو يقول : الحمد لله الذي أنقذه من
النار،.

وروى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: اشترى

ورسول الله ﷺ من يهودى طعاما بنسيئة ، وفي رواية ، إلى أجل
ورهنه دوطا له من حديثه .

وقد يتساءل البعض قائلا : ألم يكن في المسلمين من يشتري
منه الرسول ؟ والجواب أن هناك حكما كثيرة لهذه المعاملة منها
بيان حلى لجواز معاملة غير المسلمين ، كما أن فيها نوحا من التقاضى
وهفة النفس وكرم الهمة لرسول الله لأن الصعابة قد لا يأخذون
رهننا من رسول الله ﷺ ، بل قد لا يقبضون منه الثمن ، ففسد
إلى معاملة اليهودى لئلا يضيق على أحد من أصحابه .

ولعلنا نذكر أن أحده الماتعنين على أمرار هجرة الرسول من
مكة إلى المدينة ، وأحد الذين شاركوا في التخطيط لها والتنفيذ هو
هبة الله بن أريقط وكان مشركا .

وعندما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة عقد معاهدة تاريخية
مع اليهود كفلت للفريقين حرية العقيدة وأمن الجوار ، وجمعت
بين المسلمين واليهود في ميدان المعركة دقاعا عن المدينة .

إن هناك مجالات فسيحة للتعاون بين المسلمين أفرادا وجماعات
وبين غير المسلمين في إطار التعارف البشرى وكرامة الإنسان وتبادل
(٩ - قضية التكفير)

— ١٣٠ —

المنافع .. قال تعالى وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على
الإثم والعُدوان،^(١).

وقال جل شأنه ديا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى
وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن
الله عليم خبير،^(٢).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١) سورة المائدة — ٢

(٢) سورة الحجرات — ١٣

الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٧	المبحث الأول : التوبة
٩	حقيقة التوبة
١٣	مسكورات الذنوب
١٩	المبحث الثاني : حكم مرتكب الكبيرة
٢١	تعريف الكبيرة
٢٣	تقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر
٢٥	مذاهب العلماء في حكم مرتكب الكبيرة
٢٩	رد أهل السنة على المخالفين
٣٤	موقف أهل السنة من النصوص المكفرة
٣٦	فهم قوله تعالى د ومن لم يحكم بما أنزل الله ...
٤٣	المبحث الثالث : الحكم بالكفر
٤٥	الحكم بالآثار الدنيوية
٤٨	د على الشخص أو الوصف
٥٠	د بالآثار الآخروية
٥٥	موقف المسلم

الصفحة	الموضوع
٥٧	لفظ اللعن في القرآن
٦١	المبحث الرابع : الحاكية
٦٢	مفهوم الحاكية
٦٦	معاني حاكية الله تعالى
٦٦	الحكم الكوني
٦٧	الحكم التشريعي
٦٩	الحكم الآخروي
٧٠	الحكومة الإسلامية
٧٥	المبحث الخامس : الحكم على الفرق الإسلامية
٧٧	الأصول والفروع
٨٢	الحكم بالتكفير على الفرق
٨٧	المبحث السادس : حديث افتراق الأمة
٨٩	نصوص الحديث و تعداد الفرق
٨٩	أقوال الإمام البندادي
٩٣	د د الشهرستاني
٩٥	د د ابن الجوزي
٩٨	شرح العلماء للحديث
١٠٢	تعقيب وتعليق
١٠٢	خطأ المحصر

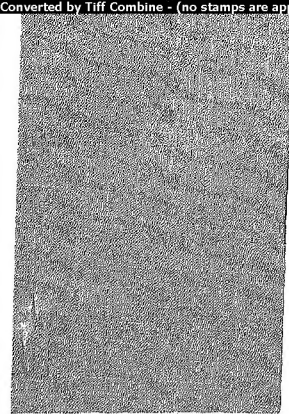
الصفحة	الموضوع
١٠٤	المراد بالآلة
١٠٦	مفهوم الفقرة الناجية
١٠٩	المراد من قوله «كلمها في النار ..»
١١٠	رأى ابن قيمية
١١٤	« الشعراى
١١٥	« ابن حوم
١١٧	المبحث السابع : موالاة الكافرين
١١٩	آيات النهى عن الموالاة
١٢٣	مفهوم الموالاة
١٢٧	البر بأهل الذمة
١٣١	الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب

٤٩٦١ لسنة ١٩٩٦ م

I.S.B.N—977—19—0699— 2

٤ من ذو الحجة ١٤١٦ هـ — ٢٢ من إبريل ١٩٩٦ م



.....

.....

